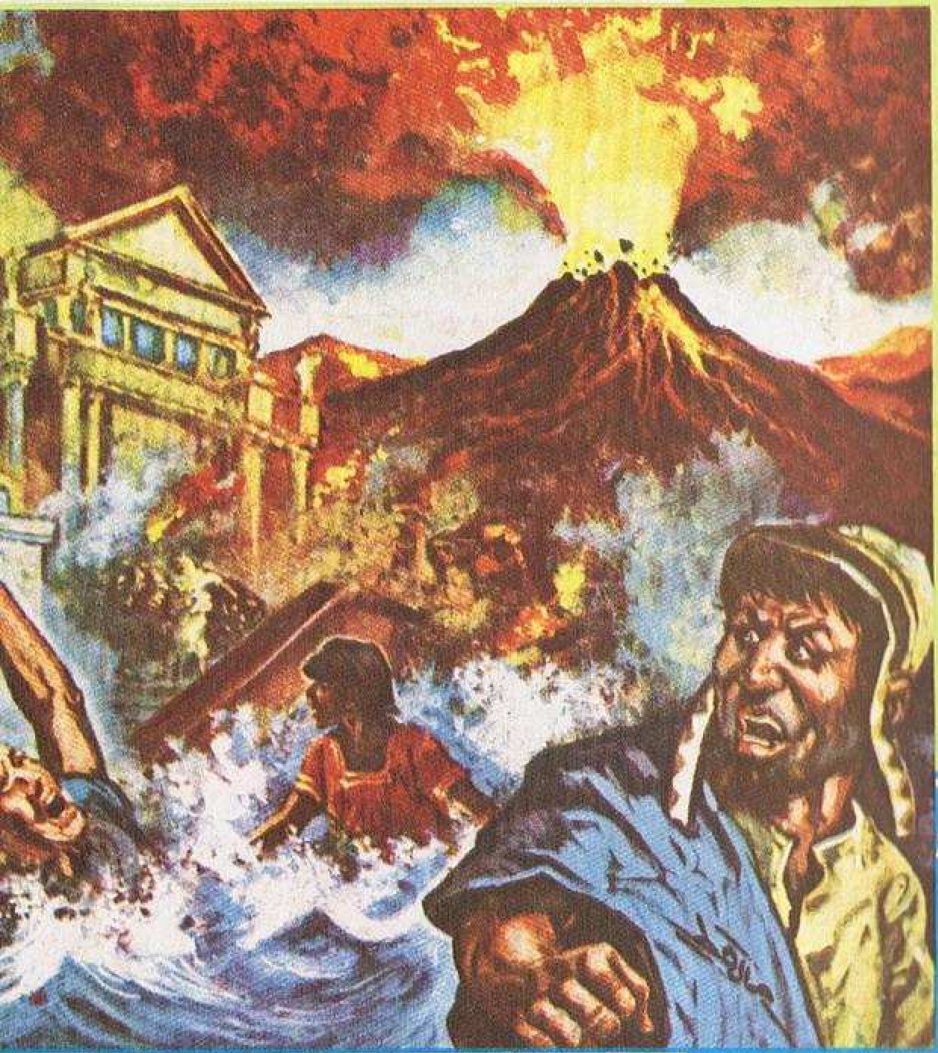
آخر أيام بومبيي

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات



دار العلم للملايين
بيروت

آخر أيام بومبيي

دار العلم للملايين

هذه الرواية

- رواية عالمية تصوِّر حياة مدينة بومبيي الايطالية في صيف عام ٧٩ للميلاد قبل ان يلفظ بركان فيزوف حِمَمَهُ الرهيبة.
- مغامرات مثيرة تعيش معها يوماً فيوماً حتى لحظةِ الكارثة التي دمرت هذه المدينة التاريخية تدميراً كاملاً.
- قصة لن تترك قراءتها قبل ان تصل الى نهايتها وتعرف ماذا حلّ اخيراً بأبطالها ...

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

آخر أيام بومبي

تأليف
إدوَرْد ليتّون

تعريب وتلخيص
أكرم الرافعي

دار العلم للملايين
ص.ب ١٠٨٥ - بيروت
تلفون: ٢٢٤٥٠٢ - ٢٩١٠٢٧

الطبعـــة الأولى ١٩٧٢

الطبعة التاسعة

تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨١

١. لقاء الصديقين

« – هيه ، ديوميد .. لقاءٌ سعيد! هل تتعشّى عند غلوكوس هذهِ اللّيْلة ؟»

كان المتكلمُ شاباً قصيرَ القامة ، يرتدي ثوباً فضفاضاً في اتساعهِ دليلٌ على نبالة صاحبه بقَدْر ما هوَ شاهدٌ على غَطْرَستهِ .

قال ديُوْميد ، وهو رَجُلٌ ناضجٌ مَديْدُ القامة :

– « لا ، يا عزيزي كلوديوس ، مع الأسف؛ فهو لم يَدْعُني ! لقد خدَعني ، وحقِّ بولّوكس (أحد الابطال الخرافيين) ؛ فالمعروف أن ولائمَهُ أعظمُ الولائم في بومبي .»

– « بالتأكيد .. رغم أنها لا تَشْتملُ على ما يكفيني من الخمرة .. هو يقول إن الخمرة تُثْقِلُ رأسه ! »

– « لا بُدَّ أن هناك سبباً آخرَ لهذا الشُّحّ .. ولا ريبَ أنه ليس غنياً بالقَدْر الذي يُوْهِمُ به الناسَ .. إنه يفضّلُ

حماية طاساتِه على حمايةِ عقلِه ! »

— « وهذا سببٌ آخرُ لتناول العشاء على مائدته، طالما لم ينفَدْ ما لديْه من مال ! »

— « سمعتُ أيضاً أنه يُحِبُّ القمار ؟ »

— « إنه يُحِبُّ جميع اللذائذ.. وبما أنه يُسَرُّ بإقامة مآدب العشاء ، فنحنُ جميعاً أصدقاؤه ! »

كانت ترِنُّ في أذن كلوديوس أجراسُ العرَبات التي تتلاقى ثم تتباعد مُسْرِعةً ، فيوجِّه الابتسامات ويُحيي برأسه أكثرَ المجموعات تأنقاً بين رُكّاب تلك العربات ! لم يكن بين المتبطّلين من هُوَ أشهرُ منه في بومبي .

ومرَّ شابٌ في عربةِ رائعة الزينة يجرُّها حصانان من تلك السُّلالة « البارثيّة »[1] النادرة ، وفي الشابّ كما في الحصانين تلك الخطوطُ النبيلة الجذابة التي خلّدها المثّالون (النحّاتون) الأثينيّون في أعمالهم .

وصاح الشابُّ ، ذو الشعر الأشقرِ المُخوْتَم ، والتقاطيعِ المتناسقةِ التي تَدُلُّ على أصله اليوناني :

—« أهذا أنتَ ، يا كلوديوس؟ حذارِ أن تَنْسَى دعوتي لك الى العشاء ، هذه الليلة ! »

— « ومَنْذا الذي يَنْسى دعوة لغلوكوس ؟ »

(١) نسبة إلى بارثيا ، وهي اليوم جزء من إيران .

— « وإلى أيْنَ أنتَ ذاهبٌ الآن ؟.. إن كنتَ غير مرتبطٍ بشيء ، فسأُرْسل عربتي ونتمشَّى معاً .. »

ثم أضاف مشيراً إلى أحد الجوادين :

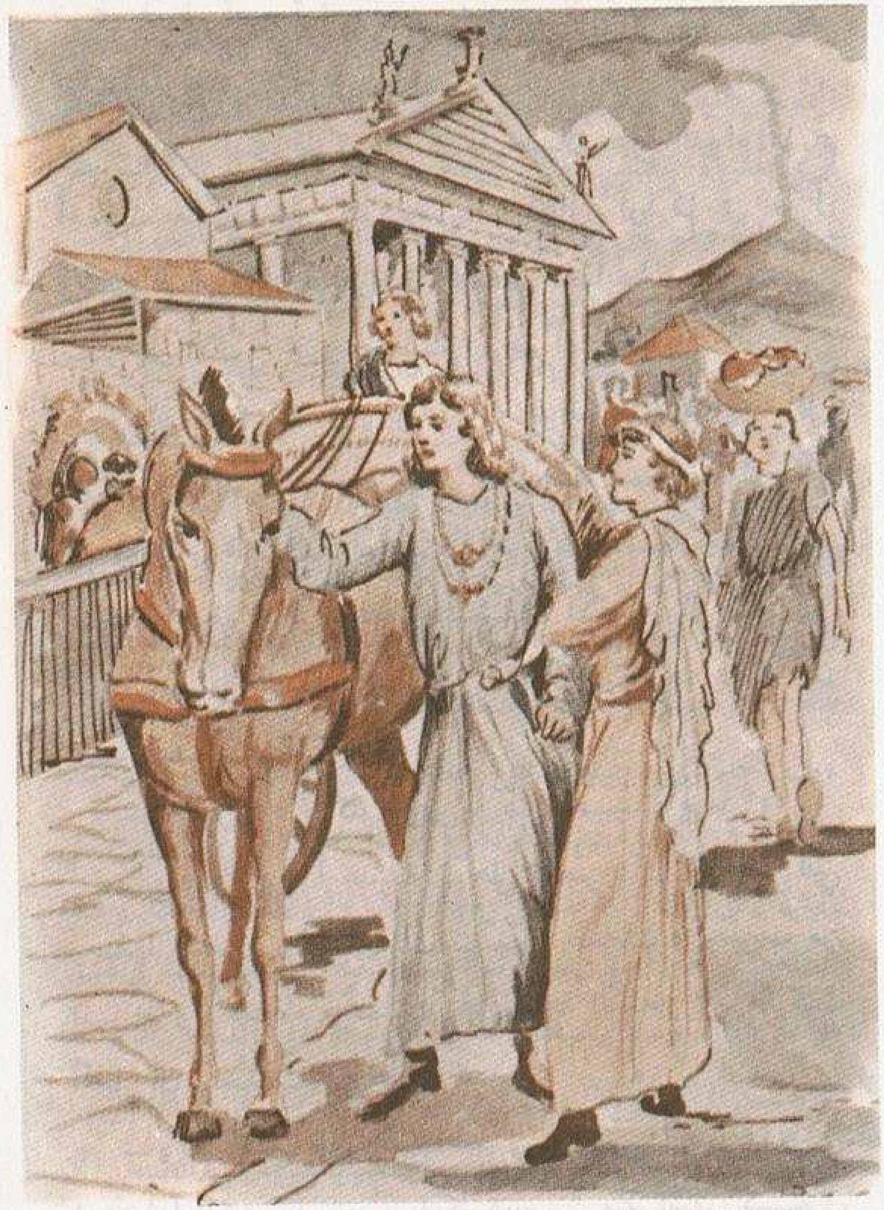
— « أليس حيواناً جميلاً ؟ »

أجاب النبيلُ المتطفّل :

— « إنّه جدير بفيبوس (أبولو) .. أو بغلوكوس ! »

وسارَ الشابّان يَطوفان الشوارعَ ، وكانت جدرانُ حوانيتِها المفتوحةِ مكْسُوّةً بتصاويرَ منسجمةِ الألوان . وفي كل ناحية كانت النوافيرُ ترطّبُ ذلك الجوَّ الحـارَّ ، والشابانِ يتبادلان الأحاديث المرِحة .

وتحتَ سقيفةٍ من السّقائف كانت فتاةٌ تَطْلُبُ الظّلَّ . كانت تُدَلّي من ذراعها اليُمنى سلّةً من الأزهار ، وتحملُ باليدِ اليُسْرى آلةً موسيقيةً لها ثلاثةُ أوتار ، تُصاحب أنغامَها بأغنية غريبةٍ تكادُ تكونُ بدائية . وبين المَقْطَعِ والمَقْطع كانت الفتاة تحرّكُ سلّتَها بلُطْف، داعيةً المارّة إلى شِراء أزهارِها . وكانت السّسْتَرْسات (السّسْترس قطعة نقد فضية قديمة عند الرومان) تتساقَطُ في السلّة لأنَّ أهالي بومبي كانوا يُحبّونَ هذه الفتاةَ ويَعْطِفُونَ عليها ، إذ كانت عمياء . وتَوَقَّفَ أمامَها غلوكوس ليُلْقي في سلتها حَفْنَةً من القِطَعِ الفضّيةِ الصغيرةِ ، وقال :



« وسار الشابان يطوفان الشوارع ... »

– « سآخُذُ باقةَ البَنَفْسَج هذه . يا حُلوتي نيديا ..
صَوْتُكِ اليومَ أجملُ من كل مرة ! »
وارتعشَتِ العمياءُ الشابَّةُ عندما سمِعَتْ صوتَ الأثيني ،
واكتسى خدّاها بحُمرةٍ شديدةٍ ، ثم همسَتْ قائلةً :
– « إذَنْ لقد عُدْتَ ؟ »
– « أجل، يا بنيتي .. عُدْتُ من بضعةِ أيام . إن حديقتي في حاجةٍ إلى عنايتك ، كالعادة .. أرجو أن تزُورِيها غداً ! »
وابتسمَتْ نيديا دون أن تُجيبَ . بينما كان يبتعدُ غلوكوس دونَ مبالاةٍ ، بعد أن ثبّتَ باقةَ البَنَفْسَج على صدره .
واقتربت سيدةٌ شابةٌ محجَّبَةٌ من الشابين ووراءها وَصيفَتان . قال غلوكوس :
– « تحيّةً يا جوليا الحسناء ! »
ورَفَعَتْ جوليا – وهي ابنة ديوميد – نِقابَها بدَلال عن وجه رومانيّ جميل بعينَيْه السوداوَيْن البراقتين ووجنتَيْه المائلتين الى السُّمرة . قالت وهي تلقي نظرة ذات مغزى نحو الأثينيّ :
–« ماذا ، غلوكوس يَعُود؟ هل نسِيَ أصدقاءَ العامِ الماضي ؟ »
– « جوليا العُلْوية ! إن جوبيتير لا يَسْمَحُ لنا بالنسيان

سوى فترةٍ قصيرة ؛ ولكنَّ فينوس لا تسمحُ لكِ حتى بتلك الفترة .»

— « إنَّ لدى غلوكوس كلاماً جميلاً على الدوام! » ثم أضافت ملتفتةً إلى كلوديوس : « دعاني أراكما في منزل والدي الريفيّ ! » ثم راحت تخفضُ نِقابَها ببطء وهي تنظرُ إلى الاثنيّ بحياءٍ مصطنَعٍ وجُرأةٍ حقيقية .

وسارَ الصديقان في طريقهما ، فوصلا إلى شارع أقلَّ حركةً ، يظهرُ من آخرِه البحرُ بصفحتِه السماويّةِ الزُّرقة .

وانحدَرَ الرفيقانِ نَحْوَ الشاطىء ، حَيْثُ جلَسا على صخرةٍ صغيرةٍ ، وراحا يتَنَشّقان الأنسامَ الرَّطْبةَ التي كانت تَهُبّ عليهِما من البحر . قالَ اليونانيّ ، بَعْدَ أنِ امتدَّ الصَّمْتُ بالشابين :

—« خبِّرْني ، ياكلوديوس ؛ هل أحبَبْتَ يوماً ؟»

— « نعم، مراراً عديدةً.. هل تشعرُ بتلك العاطفةِ التي وصفها الشعراء والتي تجعلك تُهْمِلُ طعامك ، وتَهرُبُ من المسرح والأصدقاء وتحملُكَ على كتابة الأشعار ؟ . ما كنت أتخيل أن يَحْدُثَ لك هذا ! »

— « لم أصِلْ إلى هذا الحدّ .. ولكنّي أجدُ في نفسي استعداداً لذلك . إسمع ، يا كلوديوس : منذ أشهرٍ كنْتُ في نيابوليس (نابولي) ، فدخلتُ إلى مَعْبَدِ مينيرفا ، لأصلّي

لتلكَ الإلهَة . كانَ المَعْبَدُ خالياً في تلكَ اللحظة . وعاوَدَتْني ذكرياتُ أثينا فأطلقْتُ لأفكاري ودموعي العِنان . ولكنَّ زَفْرةً عميقةً ردّتْني إلى الواقع ؛ فالتفتُّ ورائي فإذا بي أرى امرأةً تصلّي مثلي للإلهة ، وقد رَفَعَتِ النّقابَ عن وجهها . ولم أرَ في حياتي وَجهاً بمثل ذلك الجمال . والذي كان يَزيدُهُ عُذوبةً وجمالاً هو تلك الكآبةُ المرتسمةُ في تقاطيعِهِ . لستُ أدري ما الذي كان ينطوي فيه من الرُّوح . التي جسَّدها المثّالون في تمثال « النفس » (بسيْخيه) ، فيُضْفِي على جمالِه جاذبيةً إلهية . كانت الفتاة تبكي ، فعلمْتُ أنها من أصل أثينيّ ، وأن صلاتي قد حرّكت أشجانها ووَجَدَتْ صدىً في قلبها . فخاطبْتُها بصوت منفعل . فاحمرَّ وجهُها ، وأرخَتْ نِقابَها ، وأجابتني قائلة : « إن أجدادي يرْقُدون على ضفافِ نهر « ايليسوس » .. لقد ولدتُ في نيابوليس ، ولكن أسرتي من أثينا ، وروحي اثينية ! » قلت : « فلنصلِّ معاً ! » . وفي تلك اللحظة وصل الكاهن ، فمزَجْنا إبتهالاتِنا بابتهالاتِه ، ولَمَسْنا ركبتَيْ الإلهة معاً ، ومعاً وضعنا أكاليل الزيتون على المذبح . لقد كنا غريبَيْن ، نحنُ الاثنين .. من بلاد فقدَتْ عزَّها الماضي .. والتقينا في معبدِ إلهةٍ لبلادنا ، أفلَمْ يكُنْ من الطبيعي أن يتّجه قلبي نَحْوَ مواطِنَتي ؟.. وغادَرْنا المَعْبَدَ في

صمْتٌ ، وكنت أريد أن أسألها أين تسكُن ، وهـل في إمكاني أن أزورَها ؛ ولكنّ أخاها أقبلَ في تلكَ اللحظة ، وأخذَها بيدِها ومضى بها . والتفتَتْ إلى الوراء ، ووجّهَتْ إليَّ تحيّةَ الوداع . وفرّقَتْ بيننا الجماهيرُ .. وسافرْتُ بَعْدَ ذلك إلى أثينا لمتابعة دعوىً معقّدةً طويلة . ولما عُدْتُ إلى نيابوليس ، فتّشْتُ عنها في كلّ زاويةٍ ، فلَمْ أعثُرْ لها على أثَر . ولهذا طلبْتُ النّسْيانَ في ملَذّاتِ بومبي .. تِلْكَ هي قِصّتي .. إنّني لا أحِبُّ ؛ ولكنني أتذكّر ، وتمتلىء نفسي بالأسَى والأسف ! »

وقبلَ أن يجيبَ كلوديوس . سمعا وَقْعَ خُطىً بالقرب منهما ، فالتفتَ الاثنان نَحْوَ القادم .

كانَ رجلاً فارِعَ الطُّول متينَ البِنْيَةِ ، يناهـزُ الأربعينَ من العمر ، ويَدُلُّ لونُهُ الأسمَرُ على أصلِهِ الشّرْقي . وحيّاه الشابّانِ ، ثم رَسَما بطريقة آليّة حركَةً من شأنها أن تَدْفَعَ عنهما الشرّ ؛ لأنّ أرباسيس المصري معروفٌ بأنه يُصيبُ بالعين . قال ارباسيس بابتسامةٍ جافة :

— « لا بُدّ أن شيئاً جذاباً قد جاء بكلوديوس المرِح وغلوكوس المحبوب إلى هذا المكان ! »

— « إنّ اللذّةَ في التغيير : ابتعادٌ عن الضجيج ، ثم عودةٌ من الوحدة إلى الحركة والصّخَب . »

— « إنكما تُحسنان صُنْعاً باغتنام الفُرَصِ ما دام الزمنُ يَبْسِمُ لكما .. الوردةُ سُرْعانَ ما تَذْبُل .. والعِطْرُ يتبدّد .. ثم .. هل لنا ، أنا وأنت يـا غلوكوس ، ونحن الغريبان ههنا ، غيرُ اللذّةِ أو الحسرة : اللذةُ لك والحسرةُ لي ؟ »

ثم لفّ ثوبَهُ على جسدِهِ ، وابتعَدَ عنهما ببطء .

قال كلوديوس :

— « هأنذا أتنفّسُ بملء رئتيّ الآن ! »

وقال غلوكوس :

— « ما أغرَبَهُ من رَجُل: يدّعي أنه لم يَعُدْ يلتفتُ إلى اللذة ؛ ولكنّ منزلَهُ وقلبَهُ يكذّبانِ ذلك ، حسَبَ ما يُقالَ عنه ! »

٢. في معبد إيزيس

بَعْدَ أن تركَ أرباسيس الشابّيْنِ تَوَجّهَ إلى المعبد الصغير الجميل المكرّس للإلهة إيزيس .

واستقبلَهُ الكاهنُ بودٌ ومن غير كُلْفة ، وقادَهُ إلى حُجْرةٍ قُرْبَ المدخل ، حيث جلَسا إلى مائدةٍ عليها ما لذّ وطاب . قال أرباسيس :

—« أنت تعرف أنني قابلت في نيابوليس « إيـون » و « ابيسيدس » ، وهما أثينيّان يَقْطُنان في هذه المدينة . لقد أصبحتُ بعدَ موت والدَيْهما وصيّاً عليهما . لقد استطعتُ التأثيرَ في الشابّ ، الذي هو رقيقٌ ، سَهْلُ القِياد . إنني أجدُ لذةً في نَشْر كِهانتنا السوداء .. ولذّتي ناشئةٌ عن حرصي على تضليلِ الناس لا عن حرصي على خدمةِ الآلهة .. وقد علّمت أبيسيدس عبادةَ ايزيس ، ووضعتُهُ عند كاهن منكم ! »

قال كالينوس — وهذا هو اسم الكاهن :

—« نعم لقد أصبحَ في حوزتنا ! ولكنّك، وقد ملأتَ قلبَهُ بالايمان ، نَزَعْتَ منه العقلَ والحكمة .. إنه يخاف ويتعذّب : غِشّنا البريء .. تماثيلنا التي تتكلم .. سلالمنا المخفيّة .. كلُّ ذلك يؤلمه ويثيره .. إنه يتأوّه ، يتحسّر ، يتكلم مع نفسه . وقد أصبحَ يرفضُ الاشتراكَ في احتفالاتنا .. ويبدو أنه يتردّدُ على بعضِ من يُشْتَبَهُ في أنهم يؤمنون بتلك العقيدة الجديدة التي تَكْفُرُ بآلهتنا . »

—« هذا ما أقلقني منه يومَ أن رأيتُهُ لآخرِ مرّة، حيث وَجّهَ إليّ بعضَ اللّوْم ؛ بعدَ ذلك صار يتجنّبُني .. أريد أن أطلُبَهُ ، وأستأنف إلقاء الدروسِ عليه .. سأدخل بـه حَرَمَ الحكمة .. سأعلّمُهُ أنّ الحكمةَ على درجتَيْن :

الدرجةُ الأولى للانسانِ العاديّ ، وهي الايمان ؛ والدرجةُ الثانيةُ للحكيم ، وهي الخِداع .

—« أما أنا فلم أمرّ بالدرجة الأولى.. ولا أنت ، على ما أعتقد ، يا أرباسيس » .

—« أنت مخطىء ، فأنا ما زِلْتُ مؤمناً، ولكنّ إيماني شيءٌ آخر : أنا أؤمنُ بالأفكار التي لا أعلّمها للآخرين ، لا بالتي أعطيْهِم إياها .. أنا أؤمِنُ بمقدرتي .. لنعُدْ إلى ابيسيدس .. إنّ غرضي من اجتذابه هو الوصولُ إلى شقيقته « إيون » .. أريدُ أنْ أجعلَ منها زوجةً لي .. أن أجعلَها مَلِكتي .. و « إيزيسَ » قلبي .. إن جمالَها لم تُبْدِعِ الحياةُ مثيلاً له ! وليسَ هذا فحَسْبُ ، بل إن لها روحاً تجعلها جديرةً بأن تقاسمني حياتي .. إنها تمتازُ بالعقلِ النيّر المُذْهِل ، والجرأةِ التي تمكّنُها من السّير في الحياة دونَ مُعين .. هذه هي الصفاتُ التي فتّشْتُ عنها طوالَ حياتي ، فلم أجِدْها إلا في « إيون » .. يجبُ أن تكون « إيون » لي ! »

—« إذن فهي ليست لك ؟ »

—« كلا ! صحيحٌ أنها تحبّني ، ولكنْ كصديق ! »

—« وماذا أستطيعُ ، أنا ، أن أفعلَ من أجلك ؟ »

—« إنني أريدُ أن أدعُوَها إلى منزلي .. أن أبهرَها، ان أدهِشها، أنْ أُشعِلَ حواسّها وقلبها ! ولكنْ علينا أن

نغرِيَ أخاها قبل ذلك .. هذه مهمتك ، وهي سهلة .. فاتَّبِعْ تعليماتي في هذا السبيل . »

٣. وليمة ...

لقد أغدقَت الحياةُ على غلوكوس عطاياها ، فلم تحرمْه إلا من شيء واحد : ألا وهو الحرية . فلقد وُلِدَ في أثينا ، ولكنَّه خاضعٌ لروما . منذ مطلع حياته وَجَدَ نفسه صاحبَ ثروة كبيرة ، فراح يتمتَّع بهواية الأسفار ، واقتناص اللذّات والاندماج بجوّ الأُبَّهَةِ والتَّرَف في البلاط الامبراطوريّ ؛ فكانَ منزلُه في بومبيي مُنْتَدىً لطلاّب اللذّة وعُشّاق الفنون .

بعدَ أيّام من بداية هذه القصّة كانَتْ حُجْرةُ المآدب في منزل غلوكوس تستقبل خمسةً من المدعوين والأصدقاء . كانوا مُضْطَجِعِيْنَ ، أمامَ المائدة المصنوعةِ من خشب الليمونِ الحامض، على سُرُرٍ فوقَها الحشايا والوسائدُ الطريّةُ المطرّزَة .

قال « پانسا » قيّمُ المدينة (المسؤول عن شؤون المدينة وملاعبها وتموينها في عهد الرومان) [1] :

---

(١) التفاسير الموجودة بين أهلة هي إضافات من الملخص .

— « في الحقيقةِ أنّ منزلَكَ أشبهُ بحِلْيَةٍ ، رَغْمَ صِغَرِهِ ! »

ودخلَ العبيدُ يَحْمِلُوْنَ الصَّوانيَ وعليها أكوابُ الخمرةِ الممزوجةِ بالعَسَل ، وأطباقُ البيض والسمك ، وبعضُ الحشائش الدقيقة المكسوّة بالثلج . وأقبلَ عبيدٌ صغارٌ آخرونَ يقدِّمون لكل ضيف طستاً مملوءاً بالماء المُعَطَّر ، ومنشفةً ذات حاشية قِرْمِزِيَّة .

قال غلوكوس ، وهو ينحني أمام تمثال صغير لباخوس (إلـه الخمرة عند اليونان) وُضِع في وسط المائدة :

— « ليُبارِكْ لنا باخوس ! »

ورددَ الضيوفُ وراءه هذه الصلاةَ ، ثم شربوا الأنخاب المعتادةَ بَعْدَ أن أراقَ هو شيئاً من كأسِهِ على المائدة . بعد ذلك اضطجعَ كلٌّ على سريرِهِ ؛ وهنا بدأ العشاء .

وصاح سالوست في إعجاب :

— « لتكُنْ هذه الكأسُ آخرَ كأسٍ لي في الحياة، إذا كان في كلِّ بومبيي خمرٌ بمثل هذه الجَوْدة ! »

وتجاذبَ المدعوُّونَ أطرافَ الحديث ، فسأل كلوديوس قيّم المدينة « پانسا » قائلاً :

— « متى سنَشْهَدُ معركةً مع الوحوش الضارية ؟ »

— « حوالَى الثامن من آب.. إنّ لدينا أسداً فتيّاً سيكون

منظرُهُ رائعاً في المهرجان ! »

فقال كلوديوس :

– « ومَنِ الذي سيُقدِّمُ إليه ليفترِسَهُ ! يبدو أن هناك أَزْمَةَ مجرمين.. لابُدَّ لك من الحكم على بريء، يا مسكين ! »

وهنا صَمَتَ الجميعُ ليستمعوا إلى قطعةٍ موسيقية على المزامير . وبعد أن انتهى الموسيقيون ، دخل عَبْدانِ يحملان طبقاً . قال سالوست الشَّرِه :

– « أيّ أكلة لذيذة تفاجئنا بها ؟ »

فأجاب غلوكوس :

–« كنتُ أحبُّ أن أقدِّم لكُما شيئاً من محارِ بريتانيْ (مقاطعة من فرنسا اليوم) ، ولكنَّ الرياحَ لم تكن مؤاتية ! »

سالوست : « يا لَهُمْ من مساكين ، هؤلاء البريطان .. على أيِّ حال لدَيْهم شيء جيِّد : المحار ! »

بانسا : « لم يخرُجْ منهم حتى مصارعٌ واحد ! »

غلوكوس : «إني ، وحقِّ بالاّس (أحد أسماء مينيرفا بوصفها إلهةً للحرب) لأفضِّلُ أن يتصارعَ الوحوشُ مع الوحوش ! أما أن يُدفعَ آدميٌّ إلى الحلبة ليقطِّعَهُ وحشٌ ضارٍ عضواً عضواً فهذا ما لا أستسيغُهُ على الاطلاق! إنَّ لذتي تنقلبُ في هذه الحالة إلى نقمة ، وأحسُّ بأنَّ قلبي ينسحق وأكادُ أنطلقُ لأُنجدَ الضحيّةَ.. وأفظعُ من هذا كلِّه

أصواتُ المشاهدينَ وهتافاتُهُمْ .. إنّها لأَشْبَهُ بصراخِ « الغوري » وراء أورست (الغوري : ثلاث جنيّاتٍ للعذاب، شعورُهُنَّ مجدولةٌ بالأفاعي . وأورست هو ابنُ أغممنون ، أحد ملوك اليونان . وقد قتَلَ أمه انتقاماً لأبيه) .. ولكم أتمنّى أن يجنِّبونا هذه المشاهدَ الرهيبةَ في الأعياد القادمة ! »

ثم جاءت الحَلْوَياتُ والفواكه . وأديرت الكؤوسُ بعد ذلك ، وراحَ الموسيقيونَ يَعْزِفون . وغنّى أحدُهم مقطوعةً لهوراس (أحد شعراء اللاتين) . وقال كلوديوس :

–« إنَّ هذا اللحن يتميَّز بالفنِّ الإيوني الأصل ... » ثم أضاف : « هذه الكلمة تذكِّرني بشخص لا بُدَّ أن نشرب نخبه ! » ثم رفع كأسه وقال : « نخب إيون الحسناء ! »

وتساءل غلوكوس :

–« الاسم يونانيّ .. فمن تكونُ إيون هذه ؟ »

قال ليبيدوس : « ومَنْذا الذي لا يعرف إيون؟ مَن جَهِلَها فقد جَهِلَ أروَعَ ما في مدينتنا ! »

غلوكوس : «صِفُوها لي بحقكم ! »

كلوديوس : « إعلَمْ . يا عزيزي غلوكوس. أن إيون فتاةٌ أجنبيةٌ وصلَتْ حديثاً الى بومبيي .. إنها ذاتُ جمال نادر .. وإذا غنّت فأين منها « سافو » (شاعرة يونانية من القرن السادس قبل الميلاد .. كانت لها مدرسة تعلِّم فيها البنات

الشعر والغناء) .. وهي تغني قِطَعاً من تأليفها .. أما الناي . أما القيثارة ، أما الرَّباب فسَلْني على أيٍّ من هذه الآلات لا تعزِفُ أحسَنَ من ربّات الفن (ربات الفن عند الإغريق تسعٌ يَحْمين الشعر والغناء والموسيقى ...) .. ولها منزل آيةٌ في الذوق ، وهي كريمةٌ بقَدْرِ ما هي ثَرِيَّة ! »

غلوكوس : « هذا رائعٌ .. هَلْ أستطيعُ أن أراها ؟ »

واقترَحَ ليبيدوس : « ماذا تقولونَ لو أنّنا، بدَلَ أن نُساهرَ النجومَ حتى مَغيبِها ، نَزُورُ تلكَ التي تَكْسِفُ النجوم ، ونُكْمِلُ السَّهرةَ عندها ؟ »

ووافقَ الجميعُ بكل سرور ، وخرجوا يَقْطَعون شوارع بومبيي المزدحمةَ الصاخبةَ ، حتى وَصَلُوا إلى مَنْزِلِ إيون . وكانت في فسحة المدخل بين مجموعةٍ من الزائرين . وما إنْ وقَعَتْ عَيْنا غلوكوس عليها حتى وَقَفَ مَبْهوراً : إنها نَفْسُ الفتاة التي صلّى معها في نيابوليس !

٤ . نيديا

في صباح اليوم التالي كانت فتاةٌ ، ترتدي ثوباً بسيطاً أبيضَ يغطّيها من عُنُقها حتى القدَمين وتحمِلُ بذراعها سلّةَ أزهارٍ ، تقِفُ على باب غلوكوس ، وتسألُ عنه .



« أهذه انت يا نيديا ؟ كنت متأكداً انكِ لن تبخلي عليَّ بالزيارة . »

قال غلوكوس وهو يستقبلها ببشاشة :

–« أهذه أنتِ، يا نيديا؟ كنتُ متأكداً أنكِ لن تبْخلي عليَّ بالزيارة ! »

نيديا : « إنَّكَ على الدوامِ كريمٌ معي ، وأنا العمياء المسكينة !. قلْ كيفَ صِحتُكَ .. ولكنْ مالي أسأل : إنَّ جميع من يَروْنَ هذه الدنيا ، التي يُقالُ إنها جميلة ، لا بُدَّ أنهم يتمتَّعونَ بصحةٍ جيدة ! »

غلوكوس : « صحتي على ما يرام .. وأنت ، يا نيديا .. لكَمْ كبرْتِ ! إنه ليتعيَّنُ عليك أن تستعدّي للردِّ على كلمات المُعْجَبين ! »

فاحمرَّ وجهُ الفتاةِ العمياء وقالت : « جئتُكَ بهذه الأزهار .. إنها بسيطة ، ولكنَّها مُنْتَعشة ! »

غلوكوس : « لو جاءتني بها « فلور » (إلهة البساتين وأم برنتان ، إله الربيع) نفسُها ، لما كانت أعزَّ عندي ! »

نيديا : « وكيف أزهارُ حديقتِكَ ؟ »

غلوكوس : « في غاية الروعة .. يبدو أن الآلهة قد سَهرَتْ عليها في أثناء غيابي ! »

نيديا : « كنتُ في غيابك آتي بين الحين والآخر لأعتني بالأزهار . »

غلوكوس : « ما أكرمَكِ يا نيديا ! كيف أستطيعُ أن

أشكركِ على لُطفك ؟ »

كانتِ الفتاةُ العمياء في غايةِ الاضطراب : ولكي تَسْتُرَ اضطرابَها حَيَّتْهُ برأسها . وخرجَتْ تتلمَّس الطريقَ بعصاها الطويلة . وسُرْعانَ ما غادرَتْ شوارعَ الأغنياء والمُتْرَفين ، وضاعَتْ في أزقَّةِ الأحياء الفقيرة . ودَقَّتْ على البابِ الخَلْفيّ لأحد المواخير . فإذا بصوتٍ قاسٍ غليظ يسألُها كم حصَّلَتْ من السَّسْتَرسات . وأجابَ صوتٌ أقلُّ عنفاً وقسوة :

–« لاتقلَقْ ، يا بوربو ، من أجل هذهِ المكاسبِ الصغيرة .. قريباً سيدعوها صاحبُنا إلى مآدبِهِ الفخمة .. وأنتَ تعرفُ كم يدفعُ لمن صوتُهُ كتغريد البلابل ! »

نيديا ، محتجةً : « لا .. أرجوكم ! لأَفْضَلُ عندي أن استعطي عند غروب الشمس ! إن المجموعة التي تذهب إلى هناك لا توافق بنتاً مسكينة هي .. هي .. »

وأكملَ الصوتُ العنيفُ بقَهْقَهةٍ سَمِجَةٍ : « هي مملوكة لبوربو ! »

ووضعتِ الفتاةُ سلَّتَها على الأرض ، وأخفَتْ وجهَها بيدَيْها وراحت تبكي .

في هذا الوقت كان غلوكوس يتوجه إلى منزل إيون . فوجدَها بين إمائها [1] ، وقيثارُها بجانبها . في ضياء النهارِ

(١) مفردها أمة ، وهي المملوكة .

كانت أروعَ من الليلة الماضية. وراح يتحدّثُ إليها عن أثينا، وكانت تستمعُ إليه بشغف.

وأصبحا بعد ذلك يجتمعانِ كلَّ يوم، وفي الأماسي الهادئة كانا يتنزّهان على شاطىء البحر. ولكنّهم تحسّرا لأنهما لم يتعرّفا إلى بعضِهما قبلَ ذلك.

٥. الساحر

منذ بعض الوقت أصبحَ ارباسيس يباعد بين زياراته لإيون. وفي أي من تلك الزيارات لم يصادفْ غلوكوس؛ لهذا كان خاليَ الذهنِ من رابطة الحبّ التي نشأت، بسرعة وقوة، بين الشابّ الأثينيّ وإيون.

من ناحيةٍ أخرى رأى تغيّراً واضحاً عند ابيسيدس، الذي كان يتفادى مقابلتَهُ، ويغيّر طريقَهُ كلّما جمعتهما طريقٌ. لقد تعوّدَ السيطرةَ، وكان أخشَى ما يخشاهُ هو أن يخرُجَ ابيسيدس من دائرة نفوذِهِ. إذن فلا بُدّ من عملِ شيءٍ للسّيطرةِ من جديد على شقيق إيون.

كانت هذه الافكارُ تمرُّ في خاطرِ أرباسيس وهو متوجّهٌ إلى منزل إيون. وإذا به يُفاجأُ برؤية أبيسيدس مستنداً إلى شجرة. فوضعَ يدَهُ على كتِفِهِ بمودّة، فانتفض الكاهن الشاب.

إرباسيس: «ما بك يا بُنَيّ؟ لماذا تبتعد عني؟»

فلم يَرُدَّ عليه، بل ظلّ مطرِقاً باكتئابٍ واضطراب.

إرباسيس: «لمَ أنتَ صامت؟ إفتحْ لي صدْرَك، يا بُنَيّ! لماذا لا تُفْضِي إليّ بسَريرةِ نفسك؟»

أبيسيدس: «لأنني أرَى فيكَ عَدُوّاً لي! لأنني اكتشفت ما تنطوي عليه عقيدتُكم من الغشّ والخداع، واكتشفتُ أن أولئك الكَهَنة، الذين كنتَ تصوّرهم لي كمثالٍ للصدّق والشرف والإخلاص، ما هُمْ إلاّ مجموعةٌ من الجهلة المحتالين!.. لقد تركتُ مباهجَ الثراء طمعاً في الحكمة التي أوهَمْتَني بأنكَ ستُدْخِلُني مِحْرابَها، ولكنني فوجئت بأني كنتُ ضحيةً لمُشعْوِذين.»

ولكنّ ارباسيس، الذي كان ذا تأثيرٍ لا حدّ له، ما زال به حتى طيّبَ خاطرَهُ، واعداً إياه أن يتولى أمرَهُ بنفسه، فيُطْلِعَهُ على خفايا الحكمة.

ولما وَصَلَ إلى منزل إيون كانت تنتظرُهُ المفاجأةُ الكبرى التي أشعلَتْ نيرانَ الغيْرة في نفسه: كان غلوكوس، الشابُّ الجميل، يجلسُ إلى جانب إيون في الحديقة الفوّاحة والوصيفاتُ حولهما والنافورةُ تتساقطُ مياهُها الملتمعةُ كحبّ اللؤلؤ.

وسيطر أرباسيس على نفسه، وأقبلَ عليهما:

—« تحيةً ، يا إيون اللطيفة ، تحيةً ، يا غلوكوس النبيل ! »

فانتفضَ الشابان لمرأى المصريّ بوجهه الجامد وابتسامته الساخرة ولكن إيون رحّبتْ به ، وأردفت قائلة :

—« كنت أتحيّنُ الفرصَ لأجمعَكما .. إنكما مخلوقان كي تكونا صديقَيْن ! »

إرباسيس : « إنني أرحّبُ بصداقة غلوكوس ، ولكنْ ماذا أستطيع أن أقدّمَ إليه بالمقابل ؟ هل أتحدّثُ إليه عن المآدب ، عن أكاليل الأعياد ، عن القمار ...؟ هذه اللذائذُ تتمشّى مع سنّه وطبيعته وذوقه .. أما أنا فلستُ لها ! »

بعد أن تحدّثَ المصريُّ الداهيةُ على هذا النحو خفَضَ بصَرَهُ وتنهّد ، ولكنه كانَ يراقب إيون بطرَف عينه ليرَى أثرَ كلامه فيها . وقد اغتاظ غلوكوس وظهرَ ذلك واضحاً في ردّه الجافّ :

غلوكوس : « إنّك على حقٍّ ، يا ارباسيس : في استطاعتنا أن نتبادلَ اللياقات ، ولكنّنا لا نستطيعُ أن نكونَ صديقَين . ذلك أنّ مآدبي لا تشتملُ على ذلك المِلْح الخفيّ الذي يُقالُ إن مآدبَكَ تشتملُ عليه ! ويشهدُ عليّ هرقل (بطل أسطوري ، نصف إلــه عند اللاتين والإغريق) أنني ، عندما أصبحُ في سنّكَ وأطلب لذائذ سنّ النضوج ، سأتهكّمُ على الشباب وغوايات الشباب ! »

فنظر ارباسيس إليه نظرةً أشبهَ بالسهم .

بعْدَ قليلٍ غادر غلوكوس المكانَ ؛ فراحَ أرباسيس ، بمنتهى الخُبْثِ والدهاء ، يُوْحِي إلى ربيبته بأن غلوكوس شابّ مُسْتَهْتِر لا خَلاقَ له ، وأنه يَفْخَرُ أمامَ الناس بأنه مسيطرٌ تماماً على إيون ، يَصْنَعُ بها ما يشاء ، وأن الأفواهَ في المدينة بدأت تَلُوكُ سُمْعَتَها ؛ ولمّا كان هو ، ارباسيس ، حَريصاً عليها فقد جاء ليحذّرَها من النتيجةِ السيّئة . لقد ضَرَبَ لها على الوتر الحسّاس ، وهو إباؤُها ، واستطاعَ أن يملأ صَدْرَها نقمةً على غلوكوس . وما إنْ غادَرَها حتى انخرَطَتْ في بكاءٍ مَرِيْر .

* * *

كانتِ الظلمةُ تهبط شيئاً فشيئاً على المدينة الصاخبة . هذا هو الكاهنُ الشابّ ابيسيدس متوجّهٌ إلى منزل المصريّ . إنّهُ يَسْلُكُ الشوارعَ القليلةَ الحركةِ ، يتفادَى الناسَ ؛ ويسيرُ ورأسُهُ متدلّ على صدره ، كأنه يرزح تحت همٍّ ثقيل .

وفجأة تُوْضَعُ يدٌ على كتف الكاهن ، ويدعوه رجل باسمه ، وهو يرسم علامة الصليب .

ابيسيدس : « آه ، الناصريّ [1] ! ماذا تريد مني ؟ »

(١) كان اليهود يدعون المسيحيين الأول بالناصريين نسبة إلى مدينة الناصرة: يسوع الناصري .

اولنتوس : «إنني لا أريدُ أن أقطعَ عليك تأملاتِكَ ! ولكنْ... في المرة الماضية كان استقبالُكَ لي أفضلَ من الآن ! »

ابيسيدس : « إنني مُتْعَبٌ هذا المساء ، ولا أستَطيعُ أن أدخل معك في نقاشٍ حول المسائلِ التي تَهتَمُّ بها ! »

اولنتوس: «أتكونُ مُتْعَباً وحزيناً ولا تريدُ أن تقترِبَ من المنابع التي تغسِلُ الأوجاعَ والأحزان ؟! »

ابيسيدس : وهو يضربُ على صدرِه وقد فقَدَ صبْرَه: « أيتها الأرض، أأصدِّقُ هذا الرجلَ ، الذي يدَّعي أنَّ الآلهةَ التي عبَدَها آبائي لم تكن شيئاً، أم أصدِّقُ ارباسيس! »

ثم تركَهُ وسارَ مسرِعاً ؛ ولكنَّ اولنتوس استوْقَفَهُ قائلاً :

— « مسْلَكُكَ هذا لا يُدْهشني ، فأنا أضايقُكَ حقاً، لأنني أهدِمُ الأسُسَ التي قام عليها تفكيرُك ! ولكني أطلبُ إليكَ أن تستمعَ إليَّ بصبر ، وسترى الظلمةَ وقد انجلَتْ ، والعاصفةَ وقد هدأت ! إن المسيح الذي سار على وجه الماء سيُقْبِلُ إليك سائراً على الأمواج الصاخبة ، التي تجتاح عقْلَكَ ، ليُنْقِذَ منكَ الروحَ ويَهَبَكَ الخلود ! »

ابيسيدس: «بمثل هذه الأقوال جعلوني أسجدُ لإيزيس!»

اولنتوس : « ولكنَّ ديانةً تكْفُرُ بالأخلاق لايمكنُ أن

تُعَدَّ ديانةً ! »

ابيسيدس: «أنا على موعد.. دَعْ هذا إلى فرصةٍ أخرى !»

وَوَصَلَ إلى منزل أرباسيس المنعزِلِ في حيٍّ بعيد عن أحياء المدينــة ، فقَرَعَ البــابَ المزخرَفَ بالرُّسوم الهيروغليفيَّة ؛ وفتَحَ لَهُ عبدٌ مصريٌّ عِملاقٌ ، وأشار إليه بالدخول ، دونَ كلامٍ . فاجتازَ قاعةً واسعةً تقومُ على جوانبها أعمدةُ المصابيح البرونزية المزخرَفة ، وتكسو جدرانَها رسومٌ هيروغليفيَّة قاتِمَةُ الألوان. وصَعَدَ سُلَّماً وراء عبْدٍ آخر ؛ وبَعْدَ أن مرَّ بحُجَرٍ عديدةٍ وَصَلَ إلى حُجْرةٍ خافتَةِ النور كان يجلسُ فيها ارباسيس ، وراءَ مِنْضَدَةٍ عليها أكوامٌ من أوراقِ البَرْديّ المكتوبةِ باللغةِ المِصْرية ، وغيْرَ بعيدٍ عَنْهُ ركيزةٌ عليها مِبْخَرَةٌ ، وفي الجانبِ الآخرِ كُرَةٌ مرسومٌ عليها الأبراج .

قال المصريُّ ، دون أن يتحرَّك: « إجلِسْ !» وبَعْدَ صمتٍ قصيرٍ ، بدا فيه أنَّهُ يتأمَّلُ ، بَدَأَ حديثَهُ قائلاً :

—«أنت تسألُني عن الأسرار الكبرى للنفس الإنسانية.. بمعنى أنك تريدُ أن تَفُكَّ سرَّ الحياةِ نفسَهُ . إننا أشبَهُ بالأطفال الذين وُضِعُوا في ظُلْمةٍ دامسة. وَسْطَ هذه الظلمة نحن نخلُقُ لأنفسِنا أشباحاً ، ونسير ونحن نتلمَّسُ بأيدينا مخافةَ ان نسقط . ومُهمَّةَ الحكمة هنا هي أنْ تحلَّ لنا مشكلتَيْنِ

اثنتَيْنِ : بماذا نؤمن ؟ ماذا نرفض ؟.. وأنت تطلبُ مني الحلَّ . »

فخفضَ أبيسيدس رأسَهُ موافقاً ، فاستطردَ المصريّ :

— « الانسانُ ، بطبيعتهِ ، محتاجٌ إلى الايمان بشيء يعلّقُ به آمالَهُ . وعندما يفقدُ الشيء الذي يتعلّق به ، يجدُ نفسَهُ طافياً على بحرِ الشكّ مفتّشاً عن خشبة يتمسّكُ بها ، فيصلَ إلى أيِّ أرضٍ مهما كانتْ بعيدةً ، مهما كانت مظلمةً رهيبةً .»

ثم قالَ له «إنّ الطقوسَ وما يتّصلُ بها من تماثيلَ ومعابدَ ليستْ إلاّ للسيطرة على العامة ، أما الحكماءُ فلا يليقُ بهم إيمانُ العامة . لهذا يجبُ عليكَ أنْ تنبذَ كلَّ ما حفظتَهُ وآمنْتَ بهِ حتّى هذه اللحظةِ . إنّ المبدأَ الأساسيّ للوجود هو الطبيعة ، والنظرُ في الطبيعةِ يؤدّي إلى معرفةِ أسرارِ الضّرورة .. تلك هي دياني التي يحكمُها إلهان هما الطبيعةُ والضّرورةُ .» وقال :

— « إني أحافظُ على الأساليبِ التي يتّبعُها الكهنةُ لأنها ضروريّةٌ للجماهير ، أما أنا فأطلبُ لنفسي الحرية . إنّ حكمتَنا أبديّةٌ ولكنّ حياتَنا قصيرةٌ ، فلنعرفْ كيف نستغلُّها . عليكَ أن تظلّ ربيبي وتلميذي ، وسأعلّمُكَ سرّ الطبيعة ، وأطلعُكَ على خفايا النجوم ، وأدخلُ بك

دائرةَ الملذّاتِ التي يجهلُها الرّجلُ العاميّ . »

في تلك اللّحظةِ ، التي كانَ يريدُ فيها أبيسيدس أن يردَّ على كلام المصريّ ، ارتفعتْ موسيقى عجيبةٌ يخيَّلُ لسامعها أنّ الأرواحَ هي التي تعزفُها ؛ فماتتِ الكلماتُ على شفتيْه ، ولم يملكْ إلا أن يتابعَها بكلّ كيانِهِ ويتابعَ النشيدَ الذي لا يمكنُ أن تعبّرَ عن روعتِهِ الكلمات .

وما إنِ انتهتِ الالحانُ حتى كانَ أبيسيدس في شبْهِ غيبُوبة ، فأخذَهُ ارباسيس بيده إلى ستارةٍ في آخرِ الحُجْرة : ألفُ نجمةٍ ونجمةٍ كانت تضيء وراء هذه الستارة التي ما لبثتْ أن اتّخذتْ لونَ السماءِ اللازورديّ . وكانت سحاباتٌ ورديةٌ ، مرسومةٌ عليها وجوهٌ جميلةٌ ، تتحرّكُ على الخلفيّةِ الزرقاء ، وتتهاوى أنجمٌ على أنغامِ موسيقى تصوّر حركةَ الكون .

قال أبيسيدس وهو يفقدُ صوابَهُ :

— « ما هذه المعجزةُ ، يا أرباسيس؟ أتريدُ ، بعدَ ما نفيْتَ وجودَ الآلهة ، أن تكشفَ لي ... »

وقاطعَهُ أرباسيس بصوتٍ مختلفٍ عن صوتِهِ العادي ، قائلاً :

— « عن لذائذِهِم ! »

وانتفضَ الكاهنُ الشاب . ولكنّ ارباسيس لم يتركْ

له فرصةً لأيِّ شيء ، إذ أنه ما اقتربَ من الستـــارة حتى انشقّت ، وتبدَّدَ كلُّ شيء في الفضاء ، وارتفعَتْ موسيقى شديدة ، وظهر مشهدٌ عجيب لعينَي الكاهنِ المبهورتَيْن :

كانت هناكَ مجموعةٌ من الفتيات المراهقاتِ تتقدَّم نحوَهُ بخُطى الرقص الإيونيّ الوطنيّ ، وتشدُّها ، بعضَهــا إلى بعض ، سلسلةٌ من الأزهار المرصَّعَةِ بالنجوم المتلألئة . لقد توَّجْنَ جبينَهُ بإكليل من الزهر ، وركَعَتْ أمامَــهُ أصغرُهُنَّ سِناً وهي تقدِّم إليه كأساً من الخمرة الممتازة . فلم يستطعْ ردَّها . ونظر إلى ارباسيس فوجَدَهُ جالساً تحت قبة في رأس المائدة وهو يبتسمُ له مشجِّعاً . كان يرتدي ثوباً أبيض يلتمع بالذهب والجواهر وعلى رأسه تاجٌ من الورد الأبيض وأحجار الزُّمُرُّد والعقيق .. كان أشبهَ بأوليس (بطل يوناني) . قال :

ـ « انطلِقْ ، يا تلميذي ! لا تخجَلْ ! سَلْ شبابَكَ ودماءك الفوارة ما أنت الآن .. أما ما ستكون فهذا ينبئك به : (وأشار إلى تجويف يقفُ فيه هيكلٌ عظميٌ !) وأضاف :

ـ « لاتخَفْ ، فهذا الزائرُ ما هو الاليذكِّرَنا بقِصَرِ الحياة . »

٦. حديث في حانة

لننتقلِ الآنَ إلى حيٍّ من بومبي يَسكنُهُ مصارعو الرِّهان

والأشقياء والمتشردون والفُسّاق . كَهفُ المصارعين يُطِلُّ على شارع ضيِّق مزدحمٍ بالسُّكان . كانت هناك بعضُ الموائد يتحلَّق حولها الشاربون أو لاعبو النَّرْد .

قال مصارعٌ وهو يَضْرِبُ على كتف الخمّارِ الضخم :

ـ « خمرُكَ هذه ، يا صاحِ ، تستطيعُ أن تحيل أحسنَ دمٍ في عروقنا إلى ماء ! »

الخمّار : « ومع هذا فهي صالحةٌ لجثةٍ ستتعفَّر بتراب السبولاريوم (المكان الذي يُجَرُّ إليه المصارعون عندمـا يُقْتَلون في الحلبة أو يصابون إصابة مميتة) ! »

المصارع : « أهكذا تنعَقُ أيُّها الغرابُ العجوز؟! سوف تراني كيف أربَحُ حصيلةَ المدرَّج .. وعندها سأستغني عنكَ وعن خمرِك الكريهة ! »

الخمار : « سبوروس ، نيجر ، تيتريدس ، إسمعوا : يقول إنه سيربح عليكم ! »

فنهض عمالقةُ الحَلْبة الثلاثةُ ليَنْقَضُّوا على الرابع ، « ليدون » ، وقال وهو ينظرُ إلى منافسيه بتحدٍّ :

ـ « تمهَّلوا ! موعدُ المباراة قريب . دَعُوا بطولتكم تَظْهَرُ هناك ! »

قال الخمّارُ ، وهو مصارعٌ قديم :

ـ « ليَكُنْ .. إن فعلتُ شيئاً من أجل انقاذك فلْتَقْطَعِ

الآلهةُ خيطَ أيامي ! »

ليدون ضاحكاً بسخرية : « لماذا تقول « خيط » ولا تقول « حبل؟ » .. إليك .. خُذْ هذا « السِّسْترس » لشراء حبل !

فقبضَ الحمّار بوربو على يد ليدون وضغط عليها ، فانفجر الدمُ من رؤوس أصابعه . فانطلق جميعُ الحاضرين بضحكةٍ وحشية . ولكنَّ المصارع تحمَّل الألم ، الذي ألِفَهُ ، دون أن تتغيَّر ملامحُ وجهِهِ ودون أن تختفيَ الابتسامةُ عن شفتيه . ولكنْ ما إن تركَ بوربو يدَهُ حتى قفزَ عليه كالقطّ البريّ ، وهو يُرْسِلُ زعقةً رهيبةً بينما كان شعرُ رأسه ولحيتِهِ واقفاً ، وقبَضَ على عُنُقه . ولكنَّ القَفْزَةَ كانَتْ عنيفةً إلى درجةٍ أن بوربو هوى على الأرض كالصخرةِ تَسْقُطُ من مرتَفَع . وكان ليدون ، المصارع الفتيُّ فوقه ؛ ولو استمرّ بوربو في هذا الوَضْع ثلاثَ دقائقَ أخرى لقُضِيَ عليه . ولكنَّ صَوْتَ سقوطِهِ نبَّهَ زوجتَهُ ستراتونيس ، فجرَتْ نحوَهُ وقبَضَتْ على ليدون ورفعَتْهُ عنه ، وصار هذا يتخبَّطُ بيْنَ يديها . ذلكَ أن ستراتونيس هي أيضاً مصارعة وقد اشتركَتْ في مبارياتٍ حتى أمامَ الامبراطور . ونهض بوربو ، الذي عادت إليه الحياة ، بعد أن كادَ يَفْقِدُها . وقال :

« لم أكُنْ أتصوَّر أنَّكَ بهذه القوَّة .. إنَّكَ في الحقيقة

رَجُلٌ ذو قوةٍ وذو أخلاق .. أعطِني يدَكَ أيُّها البطل لنتَصَافح ! »

فَصَفَّقَ المصارعونَ وهتفوا لبوربو العجوز .

وأمسكتْ ستراتونيس أذنَيْ زوجها بحبّ وقالَتْ : « تعالَ ! »

بوربو : « لا تَشُدِّي هكذا ، أيتها الذئبة .. إنكِ أعنفُ من المصارع ! »

ستراتونيس بصوت منخفض : « لا ترْفَعْ صوتك .. كالينوس جاء متخفياً .. لقد دَخَلَ من الباب الخلْفيّ .. أرجو أن يكون قد حمَلَ معه المال .. إذهَبْ إليه !

بوربو : « هأنذا ذاهب .. ولكنْ .. عينَكِ على الزبائن .. انتبهي لحساب كلّ واحد ! »

وأقبلت ستراتونيس على المصارعين تلاطفُهم قائلةً :

« هاأنتم ، كلُّكم ، أقوياء وشجعان ، فمن منكم سيُصارع الأسدَ ، إذا لم يَظْهَرْ مُجْرِمٌ يجنّبكم ذلك ! »

ليدون : « أعتقدُ أنني ، بعدَ أن نجَوْتُ من مخالبِكَ ، أستطيعُ أن أواجهَهُ ! »

تريدس : «ولكنْ .. أينَ أمتُكَ العمياء الجميلة ذات العينين البراقتين ؟ »

ستراتونيس : « إنها أرقُّ من أن تقومَ على خدمتكم ..

إننا نرسلُها لتبيع الأزهارَ في المدينة ، وتغنّي للسيدات ! ».

ورَوَتْ زوجةُ الحمّار كيف اشترَتْ هذه المملوكة ، ولم تكنْ تعلَمُ أنها عمياء ، لأن عينيها سليمتانِ في الظاهر . وقد هرب النخّاسُ من بومبيي ، بعد أن باعَها . على أنها اصبحت تعرفُ كل زاوية في المدينة ؛ لهذا أصبح سيداهـا يتركانها تذهَبُ منفردةً وهي تحملُ سلّةَ الأزهار .

٧. غلوكوس يشتري نيديا

وَهَبَّ المصارعونَ واقفين عندما دخلَ الحانةَ ثلاثةٌ من الشُبّان الأثرياء المعروفين ، في المدينة ، بالإقبال على الحياة .

قال كلوديوس لغلوكوس :

« يا لَهُمْ من حيواناتٍ رائعة .. إنهم يستحقّون بالفعل أن يكونوا مصارِعين ! »

غلوكوس هامساً : «خسارة الا يكونوا جنوداً ! »

وقال الشابُّ الثالث ، ليبيدوس : « نيجر ، معَ من ستتصارعُ وعلى أيِّ صورةٍ ستكونُ المباراة ؟ »

نيجر العملاق : « سبوروس هو الذي تحدّاني .. ستكون المعركةَ حياة أو موت .. »

وراحوا يتحدثون عن المباريات وعـن الأسلحة التي

سيستخدمها المصارعونَ في معاركهم ، ويراهنُ النبلاء الثلاثةُ على الأبطال .

وبينما هم كذلك سُمِـع صوتُ توجُّع ... قال غلوكوس :

« إنها بائعة الأزهار المسكينة » .

ثم جرى نحو مَصْدر الصوت . وفُتح البابُ فجأة فرأى نيديا تتلوّى من الألم ، في حين تدير ستراتونيس يدها بحبل مصطبغ بدم الأَمَة العمياء . فأمسك الحبلَ بيد وخلّص بالأخرى نيديا من يدَي المرأة المتوحشة .

غلوكوس : « كيف تُقْدِمين ، أيتها الشيطانة على ضرب فتاة صغيرة ، بل طفلة ؟! نيديا .. صغيرتي نيديا ! »

نيديا بين الدموع : « أهذا أنت يا غلوكوس ؟ »

قالت هذا واختبأتْ في صدره ، وقبّلت ثوبه .

ستراتونيس: « وأنتَ ، أيها الغريبُ الوقح، كيف تجرؤ علـى الوقوف بين امرأة حرّة ومملوكتِها ؟ أقسِمُ بجميع الالهة أنكَ لستَ مواطناً رومانياً ، رغم ثوبك الجميـلِ وعطورِك الرهيبة . »

وهنا دخل كلوديوس ومعه ليبيدوس .

كلوديوس : « تحدّثي بغير هذه اللهجة، يا معلّمة ! إنه صديقي . كُفّي عنهُ لسانك ! »



« أريد ان أجعلكِ موضعَ اسراري . أريد ان أكلفَكِ بمهمة . »

ستراتونيس ، وهي تضع يدها الثقيلة على صدر غلوكوس : « رُدَّ إليَّ أمَتي ! »

غلوكوس : « مستحيل.. حتى ولو ساعدَتْكِ أخواتُكِ ، جنّيات الجحيم ! »

ثم إلى نيديا : « لا تَخْشَيْ شيئاً ، أيَتُها العزيزة ، نيديا ! ما كان لأثيني أن يتأخر عن إغاثة المظلومين ! »

وتدخل بوربو : لمَ كل هذهِ الضجةِ من أجلِ أمَةٍ ؟ .. دعي هذا النبيل الشاب ، يا امرأة .. إعفي عن هذه الوقحةِ من أجله ! »

ثم جرَّ زوجته بعيداً . وفي أثناء ذلك تسلَّل كاهنُ ايزيس ، كالينوس ، دونَ أن يراه الشبّانُ الثلاثة .

كان غلوكوس في غايةِ التأثُّر على الفتاةِ العَمْياء . فجلس على كرسيٍّ صغيرٍ ، وأجْلَسَها على ركبتَيْــه ، وراح يَمْسَحُ الدموعَ عن وجهها والدَّمَ عن كتفَيْها ، ويطيِّب خاطرَها بأرقّ الكلمات . كان المشهدُ مؤثِّراً إلى الحدِّ الذي شعرَتْ به المرأةُ المسترجلة نفسُها :

ستراتونيس« : مَنْ كان يظنُّ أن نيديا يُمكن أن تُكرَّم هكذا ؟! »

واشترى غلوكوس نيديا من سيدَيْها القاسيين وأخذها إلى منزله حيث أخذ يُعْنَى بها .

٨. رسالة وجوابها

بَعد ثلاثةِ أيام قال لها غلوكوس: «الآنَ وقد زالت عنكِ آثارُ وضعِكِ الماضي، وأصبحتِ ترتدين الملابسَ اللائقةَ وتَنْعَمين بسعادةٍ أرجو أن تدومَ لكِ طولَ الحياة، أريدُ أن أجعلكِ موضعَ أسراري.. أريد أن أكلِّفَكِ بمهمة!»

– «أيَّ خدمة أستطيعُ أن أؤدِّيَها إليك؟»

– «هل سبق لك أن سمعتِ باسم إيون؟»

فاصفرَّ لون الفتاة فجأةً، وأجابت بصوتٍ مخنوق، بعد فترةِ صمتٍ:

«نعم سمعتُ أنها من نابولي وأنها رائعةُ الجمال!»

– «أنا أحبُّها.. وأريد أن أرسلَكِ إليها.»

وذهبَتْ نيديا إلى دارِ إيون؛ فلما سمعَتْ هذه بأنها رسولةٌ من عند غلوكوس تردَّدَتْ في استقبالها، إلاَّ أنها عادَتْ وأمرَتْ بإدخالها عندما عرَفَتْ أنها عمياء، فلم تَشَأْ أن تَجرَحَ شعورَها وتَرُدَّها خائبةً.

وقدَّمَتْ إليها نيديا أزهاراً مُعَطَّرةً من قِبَلِ غلوكوس ومعَها رسالة.

في هذه الرسالة عبَّرَ غلوكوس عن الألم الذي يُعانيه بسبب هَجْرِها له، خمسةَ أيامٍ بطُولها. واعتذَرَ لأنّهُ

من المحتملِ أن يكونَ قد أساء إليها بتصرُّفِهِ تجاهَ ارباسيس. وحذَّرَها من أن تستمعَ إلى وِشايات الخصوم، وخاصةً أرباسيس. وفي آخر الرسالة طلَبَ منها أن تقبَلَ الأَمَةَ كهديةٍ منهُ اليها.

وكتبَتْ «إيون» ردَّها على رسالتِهِ التي خبَّأَتها في صدرها بعد أن اشبَعَتْها تقبيلاً، قالت:

– «تعالَ إليَّ غداً.. ربما أكونُ قد ظلَمْتُكَ، يا غلوكوس.. ولكني على أيّ حال سأطْلِعُكَ على ما نُسِبَ إليك.. لا تَخَفْ من المصري، ولا من أيٍّ كان.. كتبتَ في رسالتك أنكَ قلتَ أكثرَ مما يجب.. ولكني، بهذه الأسطرِ القليلةِ المكتوبةِ على عجَلٍ، لم أقصِّر عنكَ.. إلى اللقاء!»

قالت نيديا، عندما عادت إليها إيون:

«هل يُنتظر أن يَشْكرَ غلوكوس الرسولَ على هذا الـرد؟»

فاحمر وجهُ إيون، كأنها نسيَتْ أنها أمام عمياء، ولم تُجب. وعادت نيديا تقول:

«إذا كانتِ الكلماتُ التي خطَطْتِها ستؤلمه فأرجو أن ترسليها مع جارية أخرى! أما إذا كانت مُسْعِدةً لهُ فسأتولى أنا ذلك!»

– «إنك تتحدّثين بحرارة، يا بُنَيّتي، فهل كان غلوكوس

لطيفاً معك إلى هذا الحد ؟ »

— « أيتها النبيلة إيون! لقد كان غلوكوس ليَ ذلك الشيء الذي حرَمَتْني منه الآلهة : كان صديقاً ! »

فلم تتمالَكْ إيون نفسَها من أن تَضُمَّها إلى صدرها وتقبِّلَها .

إيون : « خذي أنتِ الرسالة، أيتها العزيزة نيديا .. أنتِ مخلصةٌ لغلوكوس ، وهو جديرٌ بإخلاصك .. إحمليها إليه ثم عودي .. ستكون حُجْرتُكِ بالقرب من حجرتي .. أنا محرومةٌ من الأخت فكوني أختاً لي ! »

وقبَّلت نيديا يَدَ إيون وقالت :

« يقال إنك جميلةٌ جداً ، فهل تسمحين لي بأن أُمِرَّ يدي على وجهكِ .. هذه هي طريقتي في معرفةِ الجمال .. وقلَّما تخطىء !

ودون أن تنتظر جواباً راحت تتلمَّسُ برفقٍ ضفائرَ الإغريقية الشابة ، وجَبْهتَها الملساء ، ووجنتيْها الناعمتيْن ، وذراعَيْها البَضَّتَيْن وعُنُقَها الطويل . قالت :

« هأنذا أعرفُ الآن أنكِ جميلةٌ حقاً .. سأحملُ معي صورتَكِ إلى عالمي المظلم ، حيث ستكونين ماثلةً في خيالي على الدوام . »

وما إنْ ذهبتْ نيديا لايصال الرسالة ، حتى استسلمت

إيون إلى أحلامِها اللذيذة . ولكنَّها انتفضَتْ عندما ذكرَتْ تحذير غلوكوس لها من ذلك المصريِّ الغامض . وتحوَّلَ قلقُها إلى خوفٍ عندما ذكرَتْ أن هذا قد انتزَعَ منها وعداً بزيارته ، وأن موْعدَ الزيارةِ قد حان . ومع ذلك فقد خرجَتْ للوفاء بهذا الوعد .

٩ . محاولة إنقاذ

كان لرسالة إيون رنَّةُ فرحٍ في نفس غلوكوس تردَّدَتْ أصداؤها في أعماق كيانهِ . واستبقى بجانبه نيديا ، لأنه لا يَعْرِف كيف ستَمضي الساعات ويأتي الغد . وطلب منها أن تعيد على مسمعه العباراتِ التي تبادلتها مع إيون ألفَ مرة . بل كان يسألها تفاصيلَ لا يمكن أن يُدركها إلا من كانت له عينانِ مُبصرتان .. ثم يَستدركُ ، ويُبدي أسفَهُ ، ليستعيدَها الحكاية من البداية .

ولما جاء المساء حمَّلَها أزهاراً جديدة لإيون وأطلَقَ سَراحها . ولما وصلتْ سألت عن سيدتها ، فقيل لها إنها ذهبَتْ منذ وقتٍ طويلٍ لزيارةِ اربابسيس المصري . هذا الخبرُ نزَلَ على رأسها كالصاعقة . وراحت تسأل بإلحاح إن كانت إيون زارَتْهُ قبل الآن . قالت لها الأَمَة :

« هذه أوّلُ مرة ؛ ولكنْ ما كانَ لها أنْ تذهب إذا كان ما يُشاع عن حياةِ هذا الرجل المُخزيةِ صحيحاً .. ولكنّ سيّدتنا الساذَجةَ لا تعلَمُ من ذلك شيئاً ! »

وفي الحال وضعت نيديا سلّتَها وعادت أدراجها إلى منزل الأثينيّ . ولكن غلوكوس كان قد خرج مع بعض الأصدقاء ولن يَعُودَ إلا في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل . ماذا تفعل ؟ لا بُدّ من التصرُّف فوراً ، دون إضاعة أي لحظة .

وسألت الأَمَةَ التي قادتها إن كان لـ « ايون » قريب في بومبي .

فقالت الجارية :

« الكلُّ يعرِفون أنّ لها أخاً .. إنه شابٌّ وغنيّ ، ولكنه كان من السُّخف بحيث جعَلَ نفسَهُ كاهناً لأيزيس .

نيديا : « كاهناً لأيزيس ؟ يا للآلهة ! وما اسمه ؟ »

— « ابيسيدس ! »

— « وَضَحَ لي كلُّ شيء : لقد سمعتُ هذا الاسم عند... إن الأخَ والأختَ ضحيّتان .. فلأُسْرِعْ إليه ، وسيَعْرِفُ أيَّ خطرٍ يُحيطُ بشقيقته . »

كانَ هناك عَبْدٌ مُكَلَّفٌ بأن يَتْبع نيديا أينما ذهبَتْ ويَسْهرَ عليها . فتوجّهَتْ إلى مَعْبد ايزيس ، حيث أطلعَتْ أبيسيدس على ما حدَث ، فجُنّ جنونه . قال لها :

«كيف أستطيعُ إنقاذَها ؟ إنني لا أعرف مداخلَ البيت

ومخارجَهُ ، لأنّهُ متاهةٌ بكل معنى الكلمة ! »

نيديا : سأصْرِفُ العبد الذي يرافقُني ، فكنْ أنتَ دليلي وسأوصلك إلى الباب الخلفي .. أنا أعرِف المنزل .. وسأعلّمك كلمةَ السرّ .. خذ معكَ سلاحاً ! »

ودخل أبيسيدس إلى حُجرته ، وسُرعان ما عادَ وهو يلفُّ نفسَهُ بمعطفٍ فضفاضٍ أسوَدَ ، ليخفيَ لباسَهُ الكهنوتيّ الأبيض .

١٠ . في منزل الساحر

عندما دَخلَتْ « إيون » إلى القاعةِ الكبيرةِ في منزل المصريّ استولى عليها نفسُ الهلَعِ الذي استولى على شقيقها من قبلُ . واستقبلَها ارباسيس في وَسَطِ القاعة وهو يرتدي ثوباً تبرُقُ فيه الحجارة الكريمة . وبالرّغمِ من أنها ذهبَتْ نهاراً فقد كانتِ القاعةُ غارقة في نصف ظلمة ؛ وكانت هناك مصابيحُ تُرْسِلُ نورَها على الأرضِ الرخامية والسّقفِ المكسوّ بالعاج . واجتازَ بها الغُرَفَ والرّدهاتِ الملأى بالتُّحَفِ وبأفضل التماثيلِ اليونانية . وكانا تارةً يسيران منفردَيْن ، وتارةً أخرى يجتازان صفوفاً من العبيد الراكعين الذين يُقدّمون الحليَّ والمجوهراتِ إلى إيون ، فترفُضُها

رغمَ إلحاح أرباسيس .

كان ذلك الرجلُ المتصنّع يريدُ أن يَبْهَرَ «إيون» بكنوزهِ وتُحفِهِ وبلاغتِهِ . كان كلُّ همِّهِ أن يثيرَ فيها الرَّغْبَةَ في امتلاكِ هذه الثروةِ الأسْطُورية . ولكنَّ « إيون » كانت مُشْمئِزَّةً ، بينَها وبينَ نفسِها ، من الاطراء السخيفِ الذي كان يُغْدِقُهُ عليها ، في حين أنَّها عرَفتْهُ من قبْلُ قليلَ الكلام . وكانت تَضْحكُ من أحاديثِهِ باستخفاف .

وَوَصَلا إلى غرفةٍ تكسُوها الستائرُ البيضاءُ المطرَّزَةُ ، فصفّقَ ارباسيس ، فإذا بمائدة فخمة تُمَدُّ أمامَهُما ، ويُنْصَبُ عرشٌ لإيون تعلُوْهُ قُبَّةٌ حمراءُ قِرْمِزية ، وتَصْدَحُ موسيقى رائعةٌ من وراء الستائر . وجلَسَ ارباسيس عند قدمَيْ إيون ، بينما راح يسعى بين أيديهما غلمانٌ في غايةِ الجمالِ والأناقة .

بعد تناوُلِ الطعام قال ارباسيس :

« أتحبِّينَ ، يا ربيبتي أن تطَّلِعي على مصيرِك ؟ إنَّ كلَّ حدَثٍ من أحداثِ المستقبل لهُ ظِلُّهُ ، كالأحداثِ الماضيةِ سواء بسواء.. ظلال الماضي والمستقبل تقِفُ وجهاً لوجه كأنهما جيشانِ لا يقعانِ تحت حسٍّ . فإذا استطعنا ، بعلمنا ، أن ندخل هذه المنطقة، عرَفْنا أسرارَ الموت ومصائرَ الأحياء . »

وأخذَها من يدها وهبَط بها إلى الحديقةِ التي كانت

تَلُفُّها أشعةُ القمر . ودَخلا معبداً صغيراً يقومُ في وَسَط الحديقة . وفي حُجْرة صغيرة مظلمة ، وقَفَ بها أمامَ ستارة . وبدأ نورٌ فاترٌ رائقٌ ينبعث بالتدريج من حولهما .

كانت كلُّ الستائر سوداء وكذلك أغطيةُ سريرِ الراحة . في الوسط ركيزةٌ برونزية ومذبح صغير . في أحد الأركان عمودٌ من الغرانيت فوقه رأسٌ ضخمٌ من الرُّخام الأسْوَدِ للإلهة إيزيس .

وصبَّ أرباسيس سائلاً في الركيزة فانبعث منها نورٌ قويٌّ أزرقُ غيرُ مستقرّ . وتلفَّظَ المصريُّ بكلمات غريبة فاهتزتِ الستارةُ وانفرجت تماماً ، وظهرَ مشهدٌ طبيعيّ ، كانت خطوطُهُ وألوانُهُ تتَضِحُ شيئاً فشيئاً . ثم ظهرَ ظلٌّ ما لبثَ أن تحرَّكَ وتجسَّد ، فعرفَتْ فيه إيون ملامحَها . واختفى المشهدُ الطبيعي ليحلَّ محلَّه قصرٌ فخم ، ورجل مغطّى الرأس يحمل بين يديه تاجاً ويقف بجانب عرشٍ يحفُ به الحُراسُ والعبيد . وركع الرجل عند قدمي إيون وأخذ يدَها مشيراً إلى العرش لتجلسَ عليه .

قال ارباسيس: « أتريدين أن يكشفَ الظلُّ عن حقيقته؟ فهمست إيون : «نعم، بالطبع!» فرفعَ يَدَهُ ، فأزاحَ الشبحَ المعطفَ الذي كان يحجبه ، فاذا به ارباسيس نفسُه . قال :

« هذا هو مصيرُك !.. ستكونين زوجةَ أرباسيس ! »

لم تَخْفِ إيون دهشتها ، لأنها لم تكن تتوقع من الوصيّ عليها أن يُصبح زوجاً لها . وأعلنت له بصراحة وسذاجةٍ أنَّها تحبُّ إنساناً آخر . وما إن تفوَّهَتْ بذلك حتى تحوَّل إلى وحش مفترس . وقال إنها إما أن تكون له أو لا تكون على وجه الأرض . وفي أثناء تخلُّصِها من قبضتِهِ سقط من صدرها خطاب غلوكوس ، فعرف غريمَهُ ، وراح يُلاحق « إيون » وهي تتملَّصُ من بين يديْه لتقَعَ فيهما مرّةً أخرى .

في هـذه اللحظةِ انتزِعَتِ الستارةُ بعُنْفٍ وظَهَرَ غلوكوس وأبيسيدس . وراحَ هذا يحاول أن يحملَ شقيقتَهُ التي كانت مطروحةً على الأرض ، وهي فاقدةُ الوعي ، في حين هجم غلوكوس على المُشَعْوذ الكاهن وأخذ يتعارَكُ معه . ولما كان الاثنان يتمتّعان بقوة كبيرة ، فقد اتخذت المعركةُ مظهراً بالغَ العنف . وكان ابيسيدس يتابعُ المَشْهَدَ وهو رافعٌ خنجرَهُ كَيْ يطعَنَ أرباسيس في حال تغلُّبه على اليوناني الشاب .

وفي لحظةٍ من اللحظاتِ انفصَلَ الخصمانِ عن بعضِهما ، ليلتقطا أنفاسَهما . فرفع أرباسيس عينيْه نحو رأس إيزيس وصاح :

« أيتها الإلهةُ القديمةُ ، إحمي صَفيَّكِ .. انتقمي من هذا الرجلِ الذي يَدينُ بدينٍ وُجِدَ بَعْدَ دينكِ ، والذي

يُدَنِّسُ هيكلَكِ ويَعتدي على المؤمنين بألوهيّتِكِ ! » .

وما انتهى من كلامه حتى بدا رأسُ الإلهة وكأن الحياةَ قد دبَّت فيه ، وشاع في الرُّخام نورٌ أحمر كأنه خلف ستارة ، وانتشرَتْ حوْلَ الرأس أشعةٌ شاحبةٌ وقدحت عيناهُ بالشَّرر ، وتحوّلتا إلى ما يُشبه كُرَتَيْن من النار وهما تتَّجهانِ نحو اليونانيّ وفيهما تعبيرٌ عن غَضَبٍ مدمِّر .

هنالكَ استولى الرُّعبُ على غلوكوس ، واصطكَّتْ رُكْبَتاه ، وأصبحَ عاجزاً عن الحركة . ولم يَتْرُك له المصريُّ فرصةً لاستعادة قواه ، بل انقضَّ عليه وهو يَزْعَقُ بصورةٍ رهيبة :

« مُتْ أيُّها الشَّقيّ !.. الأُمُّ المُهَيْمنَةُ تطلُبُكَ ضحيةً ! » .

وسُرْعانَ ما ألقاه أرضاً ووَضَعَ قَدَمَهُ على صدره .

كان أبيسيدس يَعْرِفُ جميعَ الحِيَل التي يلجأُ إليها أرباسيس لإيهام الناس بصِدْقِ شَعْوَذَتِه . فهَجَمَ عليه بالخنجَر يريدُ طَعْنَهُ ؛ ولكنَّ ذراعَهُ الضعيفةَ لم تَقْوَ على الصُّمودِ أمامَ الإفريقيّ الذي ما لبثَ أن انتزَعَ من يدِه الخنْجَرَ ودَحْرَجَهُ على الأرْض . ومن ثَمَّ رَفَعَ الخنجَرَ ليَهْوِيَ به على غلوكوس الذي كان يَتَنَفَّس بصُعوبةٍ ، من شدَّةِ الضَّغْط على صَدْرِه .

وهنا حدَثَ ما لم يكُنْ في الحُسْبان : فقدِ اهتَزَّتِ الأرْضُ ومادَتْ ، وترنَّح العَمودُ الصَّوّاني ، وانقلبَ رأس ايزيس . وهوى على كتِفِ أرباسيس الذي سقط دون حراك . وصاحَ غلوكوس الذي رأى في الهزة الأرضية معجزة !

« بورِكْتِ أيَّتُها الأرضُ ، التي تَحْمِينَ أبناءكِ ! المجدُ للآلهة ! »

وأعانَ غلوكوس أبيسيدس على النهوض ، وقلَبَ وَجْهَ الساحِرِ فرأى الدَّمَ يسيلُ من فمه ، ويلطِّخ ملابسَهُ الفخمة.

وبينما كان الثلاثة يحاولون الخروجَ ، عادتِ الأرض تهتزُّ مرّةً أخرى ، حتى اضْطُرُّوا أن يتمسّكوا ببعضهم .

وما إن أصبحوا في الحديقةِ حتى رأَوْا النساءَ والعبيدَ يهْرُبون وهم يصيحون : الهزّة ، الهزّة !

لقد هدأتْ تلك الأرضُ الخطِرةُ ستّينَ سنة ، ولكنْ ها هيَ تعودُ إلى تهديد أبنائها من جديد .

في الخارج رأوا الفتاةَ العمياء جالسةً على الأرض وهي ترسِلُ الدموعَ السخية .

١١. جوليا

كانت نيديا تحدث نفسها وهي متوجهةٌ إلى منزل إيون :

« ما أسعدَ إيون ! إنها تجلسُ إلى جانبه .. تسمعُ صوتَهُ .. تستطيعُ أن تراه ، أن ... »

في هذه اللحظة وُضعت يدٌ على كتِفِها وخاطبَها صوت :

« أصحيحٌ أن الأثينيَّ الجميلَ قد اشتراكِ ؟ »

تلك كانت جوليا ، وكانت عائدةً مع والدها ديوميد إلى المنزل وأمامَهما عَبْدٌ يحملُ مِصباحاً ، قالت نيديا :

« إنني أخدمُ إيون النابولية ! »

— « إذن صحيحٌ أن ... عندي أسئلةٌ كثيرة .. تعالي عندي غداً .. أذكري أننا كنا صديقتَيْن ! »

في اليوم التالي توجَّهَتْ ، نيديا إلى بيت ديوميد . كان يجلِسُ عند البابِ العَبْدُ العجوزُ ميدون ، غارقاً في تأملاته . لقد دخل في الدين المسيحي . وهو يحاول أن يقنع ابنه المصارع « ليدون » .. بالتخلي عن المصارعة ولكن « ليدون » لا يفكر إلا في شيء واحد : تحرير والده من الرِّقّ .. إنه يدخل المباريات التي يتعرض فيها للموت . من أجل أن يشتري حرية أبيه .

عندما رآها ميدون ، وقفَ وقادَها إلى أوّلِ السُّلَّم التي تهبطُ إلى جَناح جوليا .

قالت جوليا : « ما دُمْتِ تعملين عند النابولية فلابُدَّ أنكِ

تعرفين إن كانت حقاً جميلةً . »

نيديا : « يقال إنها جميلة .. جميلةٌ جداً ! »

— « وهل يَزُورُها غلوكوس ؟ »

— « كلَّ يَوْم .. ما داما سيتزوجان ! »

— « سيتزوَّجان ؟ »

واضطربت جوليا وشَحُبَ وَجْهُها .

جوليا : « يقال إنكِ من تسّاليا ؟ »

نيديا : « هذا صحيح ! »

— « تساليا هي بلادُ السِّحر والطِلَّسْمات والتمائم.. فهل تعرفين شراباً للمَحبَّة ؟ »

— « أنا ؟ كيف لي أن أعرف ذلك ؟ ولكن لماذا تسأل جوليا الثرية خادمتَها عن ذلك ؟ أليس لديها المالُ والشبابُ والجمال؟ إن هذه مشروباتٌ للمَحبة تُغني عن كل سحر ! »

— « إلا بالنسبة إلى شخص واحد ! »

— « ومن هو ؟ »

فأجابت جوليا في رياء :

« ليس هو غلوكوس .. ولكنَّ ذِكْرَ غلوكوس وإيون ومشروباتِ المحبة ، التي قد تكونُ إيون استخدمَتْهـــا لجذبِهِ ، جعَلَتْني أفكر في الالتجاء إليكِ لأنك «تسّاليَّة» ولا بُدَّ أن تعرفي شراباً من هذا النوع .. إنني أعلنُ لكِ

بصراحةٍ أنني أحبُّ شخصاً لا يبادلني هذا الحبَّ ، مما جَرَحَ كبريائي ؛ فأنا أريدُ أن أراه عند قدميَّ ، لأُبديَ له الاحتقارَ وأنتقمَ منه . »

ثم سألتْها إن كانَتْ قد سمعَتْ بساحر ، من الهندِ أو من مِصْرَ ، يتميَّزُ عن باقي السحرة !

نيديا : « ومنذا الذي لم يَسْمَعْ بأرباسيس ؟ »

جوليا: « صحيح ! .. ولكنَّ ارباسيس واسعُ الغنى ، فهل أقدِّم له مالاً ؟.. ولكنْ لا بأس من زيارته .. هل أستطيعُ ذلك ؟ »

— «بالطبع ! ولكنَّ منزلَهُ خطِرٌ بالنسبة إلى النساء وخاصة منهنَّ الشابات والجميلات ! »

— « ومن يتجرأ على مسِّ ابنةِ ديوميد الثريّ؟ سأذهب الآن ! »

— « على أي حال يقالُ إنَّ ارباسيس في حالةٍ صحيةٍ سيئةٍ فلا بأسَ عليكِ من زيارتِهِ ، وخاصةً في النهار ! »

١٢. غيرة وتفكير بانتقام

كان أرباسيس يجلس في حُجْرةٍ ، لها شرفةٌ تُطِلُ على الحديقة . وكان الشحوبُ الذي يكسو وجهَهُ شاهداً عـــلى

الآلام المبرّحة التي يَحْمِلُها . غير أنَّ جسمَهُ الحديديَّ تغلَّبَ في النهاية على آثارِ ذلك الحادثِ الذي تعرَّض له ، والذي أفسد عليه خطّتَهُ في اللحظةِ التي كان فيها على وَشْكِ الانتصار .

في هذا الوضعِ كان يفكّرُ في الطريقةِ التي سينتقمُ بها من الشابِّ الاثينيّ : لقد أصبحَ الانتقامُ الآن هُوَ هدَفَهُ الأساسيّ . وفيما هو كذلك دَخَلَ عليه أحدُ عبيدِهِ ، وقالَ لَهُ إنَّ امرأةً من الطبقةِ الراقية — بدليلِ ملابِسِها وزينتِها ومظهرِ العبدِ الذي يُرافقها — تريد أن تقابلَهُ . إمرأة ؟ يا لها من مفاجأةٍ خفقَ لها قَلْبُ الساحر !

أرباسيس : « أهي شابة ؟ »

العبد : « إنها مُحَجَّبة، ولكنَّ قامتَها تَدُلُّ على ذلك ! »

— « لتَدْخُلْ ! »

قالَها وهو يتمنّى أن تَكُوْنَ هي إيون .

ها هي تدخل : إنها ليست إيون .. الطولُ واحد ، ولكنْ أين تلك الجاذبيةُ التي ترافقُ كلَّ حركةٍ من حرَكاتِ إيون ؟ أين الانسجامُ والبساطةُ الرائعانِ في الزينة ؟ أين الخطوةُ الواثقةُ الرزينة ؟...

أرباسيس : « إنني آسف إذ أقوم بصعوبة.. لقد تعرضت

لآلامٍ شديدة ! »

جوليا : « لا بأسَ عليك، أيها المصريّ العظيم، وعفْوَكَ عن امرأة بائسة أقبلَتْ إليك لتجدَ علاجاً لآلامها في حكمتكَ الواسعة ! »

— « تقدّمي أيتها الغريبةُ الحسناء، واشرحي ما بدا لكِ دون خوف ولا حذر . »

وجلستْ جوليا بجانبه ، وهي تُقلّبُ نظرها في مَظْهر الثّراء العجيب الذي يُحيط بها .. وداخلَها شيء من الرّهبة وهي تنظر إلى الرسوم الهيروغليفيّة والتماثيل والأشياء الغريبة . وخاصةً إلى عينَيْ الساحر السوداوَيْن الثاقبتَيْن ، اللتَيْن تحاولانِ أن تخترقا حُجُبَ نفسها .

أرباسيس : « ما هو الدافعُ الذي جاء بكِ ، أيتها الفتاة ، إلى منزل رجلٍ من أبناء الشرق ؟ »

جوليا : « شُهرتُهُ ! أليسَ علمُكَ الواسعُ معروفاً في بومبي ، أيها الحكيم أرباسيس ؟ »

— « صحيحٌ أنني حصّلْتُ بَعْضَ المعرِفة.. ولكنْ ما الذي يَهُمُّ الجميلاتِ من ذلك ؟ »

وشجّعها هذا الاطراء .. قالتْ :

« أليسَ من الطبيعي أن يتّجهَ المتألم إلى الحكيم ليطلبَ لديه العزاء ؟ والذين يحبّون دُوْنَ أملٍ أليسوا هم أوّلَ ضحايا

الألم ؟ »

— « إذن الأمرُ يتعلّق بحبٍّ يائس؟! إرفعي هذا النقابَ عن وجهكِ، أيتها الشابة، لأرى إن كان في مثل جمالِ الجسد! »

ولم تكن جوليا تنتظر غير ذلك.

أرباسيس: « حوِّلي هذا الوجهَ نحو من تحبِّين، فأنا لا أرى أفضلَ منه سحراً! »

جوليا: « دَعْكَ من هذا الاطراء.. إنني أريد سحراً حقيقياً مما تعلّمْتَهُ.. سحراً يُشعِلُ نيران الحب! »

أرباسيس، بشيءٍ من السُّخر: «مثلُ هذهِ التمائمِ لم تَدْخُلْ في أبواب العلم الذي حَصَلْتُ عليه.»

جوليا: « آنا آسفة إذن.. وَداعاً! »

— « مهلاً! أنا لستُ ممن لا يتأثرون بالجمال! قد أستطيع توجيهَكِ، إن كلَّمتني بصراحة.. أستدلُّ من زينتك أنكِ غيرُ متزوجة.. وقد لا تكونين ثَريَّةً.. لعلك تريدين الحصولَ على زوجٍ غنيّ؟ »

— « إنني أغنى من ذاكَ الذي يتعالى علي! »

— « هذا غريبٌ! إذن أنت تحبِّين شخصاً لا يُحبُّك؟ »

— « لستُ أدري إن كنتُ أحبُّهُ أم لا! ولكنني أريدُ أن أنتصرَ على منافسةٍ لي.. وأريدُ أن ارى الرجلَ الذي

احتقرني راكعاً عند قدَميّ. وأن أراه يحتقر غريمتي بدورها! »

— « إنَّهُ مَطْمَحٌ طبيعيّ! ولكنْ هَلْ لكِ أن تَبُوحي لي باسْمِ هذا الرجل؟ إنه لا يمكنُ أن يكونَ من بومبي »؟

— « هو أثينيّ! »

— « إنه لا يوجَدُ سوى أثينيّ واحدٍ في بومبي تجتمع لَهُ ميزات النبالة والشّباب.. أتقصدين غلوكوس؟ »

— « إنَّه هو، بنفسهِ.. ولكنْ أرجوألا تُفْشي سرّي! »

وراح يفكر: هذا الحديثُ مع فتاةٍ ساذَجةٍ قد يفيدُهُ في الانتقام لنفسه.

أرباسيس: « إن قضيتَكِ قد أثَّرتْ فيّ تأثيراً عميقاً، لهذا أريدُ مساعدتك: عند سفح جبل الفيزوف تعيش ساحرةٌ لديها كلُّ ما تطلبين.. إذهبي إليها واذكري اسمي لها، وستعطيك الشرابَ الذي تَبْغِيْن.. ولكن كيف ستتصرَّفين لتسقيهِ هذا السائل؟ »

— « والدي دعا غلوكوس والنابولية لتناول الطعام عندنا بعد غد! »

—«رائع.. سأرافقُكِ غداً إذا حلَّ الظلام حتى لا يرانا أحد».

وعيَّن لها مكانَ اللقاء والموعدَ، فانصرفَتْ.

ومن ثم أرسَلَ عبداً من عبيدهِ وراء جوليا ليسألَ عن اسمها ووَضْعِها.

١٣. ساحرة الفيزوف

عندما خفّتَ حِدّةُ الحرّ في النهار ركبَ غلوكوس و «إيون» عربة خفيفةً وتوجّها، ومعهُما عبدٌ واحدٌ، إلى خارج المدينة ليستنشقا الهواءَ النقيّ. كانت وجهتُهما هيَ خرائبَ ذلكَ المعبدِ الإغريقيّ الواقعِ على نحو ميلَيْن من المدينة.

وسارت بهما العربةُ عبر كروم العنبِ وأشجار الزيتون إلى مرتفعات الفيزوف. ولكن الطريق أصبحتْ صَعْبةَ المُرْتقَى، فلم تَعُدِ البغالُ تتقدّمُ إلا ببطءٍ ومشقّةٍ بالغة. وبين الحين والحين كانت تظهرُ لهما مغاورُ محروقةٌ تَبْعَثُ الرَّهْبَةَ في النفس. وبدأتِ الشمسُ تميلُ نحوَ الغروبِ، والظلالُ تستطيلُ على التلالِ. وكانتْ بعضُ السُحُبِ تتَهادَى على أديمِ السَّماء اللاّزَوَرْدي.

ووصلا أخيراً إلى الخرائب، وعاشا لَحَظاتٍ في جوّ الماضي مع ذكريات الأجداد؛ ولم يَسْلُكا طريقَ العَوْدةِ إلا عند ظهور الشَّفَق.

وفي تلك اللحظة بدآ يَسْمَعانِ قصفاً مكتوماً لرُعودٍ بعيدة. وتلا ذلك تلبُّدُ الغُيومِ فوقَ رأسَيْهما، وهطولُ الأمطار. وفجأةً أخذ أبصارَهما بريقٌ شديدٌ تبعَتْه ظلمةٌ

دامسة. واستحثَّ العبد بغالَهُ في الطريق الوَعْرة، ولكنَّ إحدى العَجَلات انفصلتْ إثرَ سقوطها في حُفرة يَقْطَعُها فرعُ شجرةٍ ضخم.

وخرج غلوكوس وإيون سالمَيْن من العربة التي انقلبت على جانبها. وبكثيرٍ من المَشَقّة استطاع الجميع أن يَرْفعوا العربة؛ ولكنْ لم يَعُدْ من الممكن الاحتماء داخلَها، لأن مِظَلّتَها هَبَطَتْ وصارتِ الأمطار تتسرَّب إلى الداخل.

وجَرى الحُوْذيُّ ليُصلحَ العَجَلة عند حدّادٍ على مسافة ميل، بينما راح غلوكوس وإيون يفتشانِ عن ملجأ يحتميان به من الأمطار الغزيرة. ورأيا على بعضِ المسافة ضوءاً أحمرَ، قد يكون لراعٍ أو كرّامٍ، فاتّجها نحوَهُ، ووراءهما العبدُ المرافق.

ولما وصلا وَجَدا النورَ منبعثاً من مغارة. وما إن أطلاّ من باب المغارة حتى امتلأت نفساهما رهبةً من غرابةِ تلكَ المغارةِ المنعزِلة. كان هناك مصباحٌ بدائيّ يُرْسِلُ نورَهُ الخافتَ الشاحبَ من فوق عمودٍ حديديٍّ دقيق. وكانت ثمة نارٌ عليها قِدْرٌ صغيرة. وإلى جانب المَوْقِدِ وَقَفَ ثعلبٌ منتفش الوَبَر بدأ يهرّ عندما رأى الزائرين. وفي الوسط تمثالٌ ذو رؤوس ثلاثة: رأس الكلب، والحصان، والخنزير (وهو يمثل الجحيم والعذاب). وعلى الجدران كانت معلّقةً أنواعٌ

كثيرةٌ من الحشائش .

لم يكن هذا هو الذي جمَّدَ الدم في عروق الشاب والفتاة بل وَجْهُ تلك العجوزِ الشمطاء ، الجالسة أمام النار ، بجلدِهِ الجافّ المجعَّد وشفتيْه الزَّرقاويْن الغائرتيْن ونظراتِهِ الغائمة الجامدة . كانتِ النارُ تعكسُ ضوءَها على شعر المرأة الأغبرِ المنفوشِ ووجهِها الذي يلُوحُ وكأنَّهُ خارجٌ من أعماق القبور ، فترسمُ صورةً رهيبة تبُثُّ الرعب في القلوب .

غلوكوس : « إنها ميتة ! »

إيـون : « كلا ! ها هيَ تتحرك ! إنَّها شبَحٌ ! »

وقال العبد : « لننجُ بأنفسِنا ، فهذِهِ ساحرةُ الفيزوف ! »

وسُمِـعَ صوتٌ كأنَّهُ خارجٌ من أعماقِ الأرضِ يقول :

« من أنتم ؟ وماذا تفعلونَ هنا ؟ »

وتحركت إيون لتهرُبَ وَسَطَ العاصفة ، ولكنَّ غلوكوس أمسكَ بذراعِها ، ودخلَ بها إلى المغارةِ لأنَّه لم يَعُدْ من الممكن أن يَهْرُبا ، وطلَبَ من العجوز استضافتَهما . وكشَّر الثعلبُ عن أنيابِهِ وراح ينْبَحُ مهدِّداً . فقالت المرأة :

– « إهدأ أيها العبد ! »

فعادَ إلى مكانِهِ ولكنَّهُ لم يكُفَّ عن النظرِ إلى الغرباء بعينٍ حذِرةٍ .

العجوز : « اقتربا من النار ، إذا شئتما .. إنني هنا لا أستقبل



« وما إن أطلاَ من باب المغارة حتى امتلأت نفساهما رهبة . »

من الأحياء سوى البومة والثعلب والضفدع والأفعى .. فلا تنتظرا مني استقبالاً لائقاً.. ولكن في استطاعتكما أن تجلسا ! »

ولما طال الصمت ، الذي كان يزيد في رهبة المكان قال غلوكوس :

— « أتسكنين هذا المكان من مدة طويلة ؟ »

— « نعم .. من زمن بعيد جداً ! »

— « إنه مكان كئيب ! »

— « في إمكانك أن تقول هذا بحق ، فالجحيم تحت أرجلنا »

قالت هذا وهي تشير إلى الأرض بإصبعها العظمية ، ثم أضافت :

إن سكان عالم الظلمات التحتية يحذرونكم من غضبهم أنتم ، يا من تسكنون فوق ! »

غلوكوس : إن كلامك السيىء لا يتفق مع الضيافة .. في المرة القادمة سأواجه العاصفة بدلاً من رؤية وجهك ! »

— « حسناً تصنع ! إن منزلي محرم إلا على البائسين ! »

وأضافت بابتسامة مخيفة :

— « أنا ساحرة الجبل.. أهب الأمل لمن ليس لهم أمل.. لدي مشروبات للمحبين البائسين ، ووعود بالغنى للمحرومين وجرعات للانتقام أزود بها من يتوقون إلى الانتقام ! أما السعداء فليس لهم عندي سوى اللعنات !.. لا تقلقني أكثر من هذا ! »

وعادت عجوز المغارة إلى الصمت والسكون . ولاحظ غلوكوس للمرة الأولى وجود أفعى ، يبدو أن لون المعطف، الذي ألقاه غلوكوس على كتفي إيون قد أثارها ، فرفعت رأسها كأنها تحاول الوثوب على النابولية . فتناول غلوكوس عوداً مشتعلاً ، وهو يصيح بالعجوز أن ترد أفعاها ، وتجيب العجوز بأنها خالية من السم . ولكن الأفعى ازداد غضبها فوقفت على ذيلها وهاجمت غلوكوس ، الذي عاجلها بضربة على رأسها ألقتها في الرماد الملتهب . فقفزت الساحرة العجوز وقد انقلبت سحنتها بشكل مرعب ، وخاطبت غلوكوس ببطء وحزم قائلة :

« لقد احتميت بسقفي ، وتدفأت بناري ، ولكنك جازيتني بالشر : لقد أصبت ، وقد تكون قتلت ، مخلوقاً كان يحبني .. مخلوقاً هو ، علاوة على هذا ، مكرس للآلهة ، مقدس عند البشر .. باسم القمر ، حامي الساحرة ، ألعنك ! ليذبل حبك ، ليلطخ اسمك ، ليحترق قلبك ببطء ، وفي ساعتك الأخيرة ليرن في أذنك صوت ساحرة الفيزوف الكاشف لخبايا المستقبل ! »

ثم التفتت إلى إيون بنفس الهياج والنغمة ، وأضافت :

« أما أنت ... »

فصاح غلوكوس :

« حَذارِ ، أيتها الساحرة ! لقد لعَنْتِني .. ليَكُنْ .. أنا مسلِّم أمري للآلهة .. وأنا أتحدّاك وأحتقرُكِ .. ولكنْ إياكِ أن تفوهي بكلمة ضدّ هذه الفتاةِ وإلاّ كانت هذهِ هي ساعتكِ الأخيرة ! »

فأجابتِ الساحرةُ وهي تُرسِلُ ضِحكةً وَحْشيّةً رنّانةً :

« لقد أنهيْتُ كلامي ، لأنَّ مصيرَ المرأةِ التي تحبُّ مرتبطٌ بمصيرك ! »

ثم استدارَتْ ، وركعَتْ بالقُرْبِ منَ الأفعى الجريح ، ولم ترْفعْ نظرَها من بعْدِ ذلك إلى الزائرين .

قالت إيون وهي شبهُ مصْعوقة :

« غلوكوس ، ماذا صنعْتَ ؟.. لنخرُجْ من هنا ، فقد هدأتِ العاصفة .. أيتها المضيفةُ الطيِّبة ، إصفحي عنه .. إسحي لعَناتكِ .. إنّه كان يدافعُ عن نفسه .. هاكِ عربونَ السلام بيننا لتعودي عما قلتِه ! »

ووضعت إيون كيسَ نقودها في حُجْر الساحرة . وهددت هذه :

« أخرُجا من هنا ! اللعنةُ قد انطلقت ، ولم يعُدْ يَحُلُّ مثلَ هذه العقدة سوى إلهات « البارك » (إلهات ثلاث يشرفن على مصير الانسان) ! »

قال غلوكوس ، وقد نفِدَ صبْرُهُ :

« هيّا ، يا حبيبتي ، . لنخرجْ .. أتعتقدين أنَّ الآلهةَ تستمعُ إلى تخريفِ هذه العجوزِ المجنونة ؟ »

وردّدَتِ المغارةُ طويلاً قهقهاتِ الساحرةِ بعد أن خرجَ الشابّان . وعندما أصبحا في الخارج تنفّسا الصعداء ؛ ولكن إيون ظلت خائفةً مما رأتْ وسمعتْ .. حتى غلوكوس لم يكُنْ قليلَ التأثر مما حدث .

وعادا بالعَربة التي تمَّ إصلاحها . ولما وَصَلا إلى حدود المدينة رأيا محفّةً تسدُّ الطريق . قال الحارسُ للشخص الذي في الداخل :

« الوقت متأخرٌ للخروج من المدينة ! »

— « لا بأسَ ! إنني على موعدٍ مع ماركوس بوليبيوس ، ولن أتأخرَّ كثيراً .. أنا أرباسيس المصريّ ! »

وفي الحال فسَحَ له الطريق .

غلوكوس : « أرباسيس في هذا الوقت ، ولم يَشْفَ بعد؟! إلى أين يذهب ؟ لا بُدَّ أنَّ في الأمر شيئاً ! »

إيون : « إنني أحسُّ بقربِ مُصيبة!.. أيَّتُها الآلهةُ جنِّبينا كلَّ شرّ ! »

١٤. المؤامرة

انتظر اربابسيس هدوءَ العاصفةِ وهبوطَ الظلامِ ليذهبَ

إلى ساحرةِ الجبل .

وعندما وَصَلَ إلى المغارةِ كانتِ العجوزُ قد عادت إلى وضعها ، والحيّةُ المصابةُ إلى جانبها على كومةٍ من الورق الجافّ .

« قفي ، يا خادمة الظُّلُمات والدَّرَكاتِ السُّفلى من الجحيم ، فإنَّ كائناً أرفعَ منكِ في الفن يحيّيكِ .. قفي واستقبليه الاستقبالَ اللائق . »

فرفعَتِ الساحرةُ رأسَها ، ونظرتْ طويلاً إلى الساحر . الذي كان يَقِفُ متصالبَ الذراعين ، رافعَ الجبين ، جليلَ المظهر بثوبِهِ الشرقي الفَضْفاض . وتكلَّمتْ آخرَ الأمر قائلةً

« من أنت ، يا من تَدَّعي بأنكَ أطولُ باعاً من ساحرة الأرض المحروقة ، بنت الاتروريين المنقرضين (اتروريا بلاد قديمة كانت تقع في غرب ايطاليا).

— « أنا الذي يتمنّى أن يَتَتَلْمَذَ عليه كل من يعمَلُ في السِّحر من نهر الكنج والنيل إلى أودية تساليا وضفاف دجلة العنيدة . »

— « هذه الصفاتُ لا تنطبقُ إلا على رجلٍ واحد في البلاد . هو ذاك الذي يدعوه الجَهَلَةُ ، في العالَم كلِّه . أرباسيس الساحر . أما بالنسبة إلينا فهو ذو طبيعة أسمى ومعرفةٍ أوسعَ

وأعمَقَ ؛ واسمُهُ الحقيقي هو « هِرْمِس » ذو الحزام الوهّاج

— « أنظري ! أنا ذاكَ الرَّجُل ! »

قال هذا وفَتَحَ ثَوْبَـهُ عن منطقةٍ بلونِ النار ، تبدو وكأنها تشتعلُ حولَ وَسطه ، وتنعقدُ بحَلْقَةٍ من أمام نقِشَتْ عليها إشارةٌ سِرِّيةٌ ، لا بُدَّ أن الساحرةَ قد عرفَتْها ، فإذا بها تنهضُ من مكانِها وتركعُ عند قَدَمَيْ أرباسيس . قالت بصَوْتٍ مُسْتَعْطِف :

« لقد رأيت ! فليتقبَّلِ السيِّدُ العظيمُ ، صاحبُ الحزامِ البرّاق ، خضوعي . »

— « إنهضي ، أنا في حاجةٍ إليك ! »

ثم جلسَ ، وأذِنَ لها أن تجلسَ قبالتَهُ .. قال :

« تقولين إنكِ بنتُ القبائلِ الإترورية القديمة .. هذه القبائل جاءت في الماضي من مصر .. وعلى هذا فأنت تتحدّرين أيتها الساحرة ، من آباء خضعوا لحكم آبائي .. وبالتالي فأنت تابعة لي بحكم مولدِكِ وحكمِ صناعتِكِ ، فاسمعي وأطيعي ! »

فخفضَتِ الساحرةُ العجوزُ رأسَها ، بينما استطردَ ارباسيس :

« مهما اتسعَ علمُنا في مَيْدان السحر ، فنحنُ محتاجونَ أحياناً أن نلجأ إلى الوسائلِ الطبيعيةِ لتحقيقِ أهدافنا . وأنتِ خبيرةٌ ، على ما أعتقدُ ، في الحشائشِ السامّة ، تعرِفين

أيتها تُوْقِفُ مجرى الحياة على الفور .. هل أنا على صوابٍ في ظني .. أجيبي بصراحة ! »

الساحرة : « إنَّ هذا هو اختصاصي ، يا هرمسُ العظيم .. وإذا كانت ملامحي قد فَقَدَتْ ألوانَ الحياة ، فما ذلك إلا من طول انحنائي فوق هذه القِدْرِ التي تغلي فيها تلك الحشائشُ ليلَ نهارَ ! »

— «هذا حسنٌ جداً! غداً، عندما تلتمعُ النجوم في السماء، ستأتي إليك فتاةٌ مغرورة لتطلُبَ شراباً للمحبّة ، فأعطيها أشد سمومِكِ فعاليةً ، لينقل رُوْحَ حبيبها في الحال إلى عالم الأشباح ! »

فاضطربتِ الساحرةُ من رأسِها حتى القَدَمِ وهمست قائلة :

« عَفْوَكَ عني ، أيها السيّد الخطير ! فأنا لا أجرُؤ على ذلك ! إن قوانينَ المدينةِ لا تَرْحَمُ .. وفي هذه الحال سيقبضُوْنَ عليَّ ويقتلونني ! »

— « لمَ إذن تُعِدِّين هذه السموم ؟ »

— « من سنينَ طويلةٍ كنتُ امرأةً أخرى .. وقد أحبَبْتُ وظَنَنْتُ أن الذي أحبَبْتُهُ يبادلني العاطفةَ .. ولكنَّ امرأةً أخرى ، أقلَّ جمالاً مني خَطَفَتْ مني الحبيبَ . فأعَدَّتْ أمي ، التي كانت ساحرةً ، هي أيضاً ، شراباً للمحبة وسُمّاً

قتّالاً ، لأنتقمَ من غريمتي ، وأستعيدَ الرَّجُلَ الذي اختارهُ قلبي .. ولكنَّ يدي ارتعشَتْ ، فأعطَيْتُ السم لحبيبي ، الذي سقط ميتاً أمام عينيَّ ، وفي الحال انقلبتُ إلى امرأةٍ عجوز .. ومنذُ ذلك اليومِ ، وأنا أطبخُ السّموم ظناً مني أنني سأنتقم من الغريمةِ التي حطّمت أحلامي .. وفي كل صبيحةٍ أرى جسدَ أوبوس متشنجاً والرغوة على شفتيه .. أوبوسَ الذي قتلته بيدي ! »

وراح جسدُ الساحرةِ الهزيلُ يتلوّى وينتفض . فلما هدأت ، قال اربابسيس :

« إن قصّتَكِ محزنَةٌ حقاً .. ولكنَّ هذهِ الانفعالات هيَ للشباب ، ولا تليقُ بالشيوخ .. إنَّ من شأن السنين أن تصلّب القلوبَ .. فأوقفي هذا الهياجَ واستمعي إليَّ .. باسْمِ الثأرِ الذي نذرْتِ لهُ نفسَكِ آمرُكِ أن تطيعيني ؛ فأنا ما جئت إليك إلاّ لأثأرَ لنفسي : إنّ الشابَّ غلوكوس ، الذي أفسد مشاريعي ، يجبُ أن يموت ! »

— « أقلْتَ غلوكوس ، أيها السيد العظيم ؟ »

— « نعم، وماذا يَهمُّكِ أنت ؟.. في ثلاثة أيام يجب أن يُمْحَى من الوجود ! »

— « إسمَعْ ، أيها السيد! إن أعطيتُ الفتاةَ سُماً فسوف يُكْتَشَفُ أمري .. وإذا عُرِفَ أنك جئتَ إليَّ فستكونُ

أنتَ مُتَّهماً معي ، بسبب خصامِكَ مع غلوكوس ، ولن يُخلِّصَكَ من هذه الوَرْطة إلا اللجوء إلى أقوى الأساليب السحرية ... »

فنظرَ إليها ارباسيس بقلَقٍ ، كأنَّهُ لم يَفْطَنْ إلى هذا الخطرِ من قبل . واستطردت الساحرة تقول :

« ولكنْ ماذا تقولُ لو أعطيتُها ، بَدَلَ السُّمِّ الذي يحطِّم القلبَ ، مُرَكَّباً يُفقدُ العقلَ والاتزان ، ويجعل الشخص عاجزاً عن المُضيِّ في طريق الحياة كالناس العاديين ؟ بذلك سيتحقَّقُ لكَ الانتقامُ وتبقى بعيداً عن مَواقِعِ التُّهَم ؟ »

– « يا لكِ من ساحرة عظيمة ! أنتِ لستِ خادمةَ أرباسيس بل أختَهُ المساويةَ له ! إن ما تقترحينه أشدُّ من الموت وأشفى لقلبي المتعطِّش للثأر !.. سأزيدُ في أيامِكِ عشرين عاماً .. سأعيد رسمَ مصيركِ على صفحةِ النجومِ الشاحبة ، وبذلك لن تكوني قد خدَمْتِ عبثاً صاحبَ الحزام الوضّاء ! خذي ، أيتها الساحرة ، هذه « الأدوات » لتحضري لنفسكِ حُجْرَةً أفضل من هذه المغارة المظلمة ! »

وألقى أمامَها على الأرض كيساً رَنَّت في داخله القِطَعُ الذهبية رنيناً تردَّدَتْ أصداؤهُ في قلب العجوز الشمطاء . ولما مضى عنها وقفَتْ بباب المغارة تُشيِّعُهُ بأنظارها حتى

غاب عنها . هنالك عادَتْ إلى مغارَتِها فالتقطتِ الكيسَ وحملت قنديلها ومضتْ إلى ممرٍّ ضيِّقٍ تَستُرُ مدخلَهُ الصخورُ الناتئة ؛ ثم هبطَتْ عدَّةَ دَرَجات ، فرفعَت حجَراً عن تجويف في الصخر وضعت فيه كيسَها إلى جانب النقود المتنوِّعة التي تكدَّسَتْ في التجويف والتي جنَتْها من وراء الشَّعْوَذة .

وبعد أن خبّأتِ المالَ وأعادتِ الحجَرَ إلى مكانه هَبطَتْ دَرَجاتٍ أخرى ، وتوقَّفَتْ عند شقٍّ كان يأتي منه صوتٌ مكتومٌ أشبهُ بدَوَرانِ دولاب يَقْطعُهُ بين لحظة وأخرى ما يُشبهُ الصَّريرَ . وانطلقتْ فجأةً من الشقِّ نفخةٌ من الدُّخان الأسودِ راحَتْ تَنْتَشِرُ في فضاء المغارة على شكلٍ لولبيّ : وهمستِ الساحرةُ لنفسها : « إن الأشباحَ تضجُّ أكثرَ من عادتها ! غريب !.. هذا الضوءُ العميقُ لم يَظْهَرْ إلا من يومَيْن .. ماذا يُمْكن أن يعني ؟!... »

وراح الثعلبُ يُرْسِلُ نُباحاً مستطيلاً ، ثم جرى ليحتمي في رُكْنٍ منعزِلٍ من المغارة . وما إنْ سمعتِ الساحرةُ صوتَ الثعلب ، وهو نُبوءة شرٍّ في نظرِ المؤمنين بالخرافاتِ في ذلك الزمان ، حتى ارتعَشَ جَسَدُها وداخَلَها الفزَعُ . فهمسَتْ بدعاءٍ للآلهة ، وعادَتْ إلى المغارةِ لتُنَفِّذ وصيّةَ أرباسيس .

١٥. السائل السحري

« وهل لديكِ الجرأةُ ، يا جوليا ، على الذّهاب هذا المساء لزيارةِ ساحرةِ الجبل ؟ دَعيني أرافقُكِ .. قد يكونُ وجودي غيرَ ذي فائدةٍ لحمايتكِ ، ولكنني مع ذلك أحبُّ أن أكونَ بجانبكِ حتى اللحظة الأخيرة ! »

هذا ما كانت تقولُهُ نيديا لابنةِ ديوميد التي كانت تستعد للقيام بالرحلة إلى الجبل .

جوليا : « هذا لطفٌ منك يُرضيني إلى أبعدِ حد، ولكن.. ألا تتساءلُ سيدتُكِ عن سبب غيابك ؟ »

نيديا : « إن إيون متسامحةٌ معي.. وإن كنت تأذنين لي بالمبيت عندكِ فسأقولُ لها إنكِ دعوْتِني لتستمعي إلى أغانيَّ التسالية. »

في آخرِ النهار حملَتْ محفَّةٌ كبيرةٌ جوليا ورفيقتَها إلى جهة الحمامات التي حددها أرباسيس للّقاء . ولما اجتازت المحفةُ الحماماتِ خرَجَ ارباسيس من غابة صغيرة .

ارباسيس : « تحيةً ، ايتّها الفتاة الجميلة ! من معكِ ؟ »

جوليا : « ليس مَنْ معي شخصاً غريباً .. هذه نيديا ، بائعةُ الزهور الكفيفة . »

— « آه .. نيديا .. أنا أعرفها ! »

ثم قال متوجهاً إلى نيديا التي ارتعشت من الخوف :

« إنكِ أتيتِ إلى منزلي .. أتذكرين القسَم الذي أقسمتِه ؟ إياكِ أن تبوحي بكلمة . »

وأخذ جوليا جانباً وقال لها :

« إنَّ الساحرةَ لا تحبُّ أن تستقبلَ أشخاصاً كثيرين ، فالأفضلُ أن تتركي نيديا هنا إلى حين عودتنا ! »

وعادت نيديا إلى الحمامات حيث لبثَتْ تنتظرُهما في إحدى الغرف . كانت ، وهي في هذه الوَحْدة ، هدفاً لأفكارٍ ومشاعرَ مريرة أخذت تهاجمُها من كلِّ جانب . كانت هذهِ الفتاةُ البائسةُ طيِّبةً بطبيعتها . ولكنَّ الهوى الذي استولى على قلبها جعل شعورها بالخطأ والصواب يَضْطربُ إلى حد بعيد . وظلت طويلاً تَهيمُ في هذا الفراغ ، حتى نبَّهَها للواقع وَقْعُ خطىً بالقرب منها . كانت تلك جوليا وقد عادت من زيارة الساحرة . قالت لدى وصولها :

« حمداً للآلهة التي أبعدتني عن تلك المغارة المخيفة وصاحبتها العجيبة .. ولكنني حَصَلْتُ أخيراً على السائل السِّحري .. إنَّ تأثيرَهُ مؤكَّدٌ .. لن يكترِثَ غلوكوس ، بعد تناوله ، بغريمتي ، بل سأكونُ أنا وحدي محلَّ تقديسِهِ . »

وقالت نيديا وهي تكاد تَفْقُدُ أنفاسها :

« غلوكوس ! »

— « أستطيعُ الآن، يا عزيزتي، أن أبوحَ لك بِسِرّي ..

إن الشخص الذي أُحِبُّهُ هو غلوكوس نفسُهُ ، ذلك الفتى اليوناني الجميل ! »

كانتِ الظلمةُ في العربة تخفي : عن جوليا ، التغيرات التي ظهرت على وجه نيديا لدى سماعِها ذلكَ السِّرَّ الذي لم تكنْ تتوَقَّعُهُ . ولمعَتْ فكرةٌ في رأسها ، بينما العربةُ تنطلق بهما والصمتُ يلُفُّهما : إنها ستبيتُ هذهِ الليلةَ في منزل جوليا .. فما الذي يَمنعُها من الاستيلاء على السائل الذي من شأنه أن يَهَبَها غلوكوس دون غيرها ؟ »

كان الجوُّ بارداً في المساء . ولهذا تناولَتْ جوْليا كميةً وافرة من النبيذ المضافِ اليه بعضُ الأفاويه ، وقت العشاء . قالت نيديا :

« دعيني أمسِكُ بيدي زجاجةَ الشَّراب السحري .. خبريني ما لونه ؟ »

— « إنه كالزُّجاج النقيّ ، ولا يمكن تفريقه عن الماء .. وقد أخبرتني الساحرةُ أن لا طَعْمَ له . »

— « وماذا يَسُدُّ الزجاجة ؟ »

— « سِدادة من الزّجاج .. أنا أرفعُها .. إنّهُ بدون رائحة .. قالتِ الساحرةُ إن مفعولَهُ فوريّ ، ولكنْ قد يتأخّرُ بِضْعَ ساعات ! »

وأخذَتْ نيديا زجاجةَ عِطْرٍ صغـيرةً عن المائدةِ

وَفتَحتْها وراحتْ تَشمُّها .

نيديا : « يا لَلرائحةِ الزكية ! »

— « هل أعجبَتْكِ ؟ .. لقد رَفضْتِ أمسِ السوّارَ الذي قدّمْتُهُ إليك ، فهلْ لكِ أن تَقبَلي هذه الزجاجة ؟ »

— « إنها ستذكّرني دائماً بجوليا الكريمة . »

ووَضعَتِ الزجاجةَ في صَدْرِها ؛ ثم عادَتْ تقول :

« وهل لشراب المَحبَّةِ نفسُ التأثيرِ مهما كان الشخصُ الذي يُقدِّمُهُ ؟ »

— « لو أنّ عجوزاً في غاية الدَّمامةِ أعطته لغلوكوس لرأى فيها أجملَ مخلوقة . »

سهرَتْ جوليا كثيراً ، وكانت في غاية المَرح . ثم أوتْ إلى سَريرها وكذلك نيديا . وقالتْ هذه :

« أيتها الجميلةُ جوليا ، سأتركُكِ غداً في ساعةٍ مبكّرة ، وقد أغادِرُ المنزل قبل نهوضك . »

كانت جوليا تعبةً من رحلة النهار ؛ ولهذا ما لبثت أن غرقت في نوم عميقٍ ، بينما ظلّت نيديا ساهرةً في سريرها تستمعُ إلى تنفُّسِها . ولما تأكّدَتْ أنها نامَتْ ، قامَتْ بهدوء فسكَبَتْ ما في زجاجة العِطْرِ على الأرض ، وغسَلَتِ الزجاجةَ بالماء عِدّةَ مرات ، ثم مدّتْ يدَها تحتَ وسادةِ جوليا ، فأخذَتْ زُجاجة السائل العجيب ، وأفرغَتْها في

زجاجة العِطْر ، التي كانت تُشْبِهُها ؛ وغَسَلَتْها ثم مَلأَتْها ماءً ، وأعادَتْها إلى مكانِها ، في حين خبأت زجاجةَ السائلِ داخلَ صدرها . »

في الصباح الباكر ، وقبل أن تَنْهَضَ جوليا من نومها ، كانتِ الفتاةُ العمياء تحمِلُ عصاها وتخرج ، وفي حَوْزَتِها دواءُ الساحرة : لقد أصبحَ مصيرُ غلوكوس الآنَ بين يديها .

١٦. «إشرب نخب عروسك»

في ذلكَ اليومِ كانت ستقامُ مأدبةُ ديوميد . وقد بذل التاجر الغنيُّ جَهْدَهُ ليُضفي مظاهرَ الفخامةِ على كل شيء . وكان ديوميد يَدَّعي تذوُّقَ الفنون ، كما كان يُبْدي أنه مُغْرَمٌ بكلِّ ما هو يوناني . وقد أظهرَ اهتماماً خاصاً بغلوكوس . قال وهو يشير بيده إلى التُّحَف والزينة : « سترى أنني ، يا صديقي ، متعلِّق بالفن الأصيل .. كل ما في الحُجْرة التي سنتناول فيها عشاءنا ، إغريقي .. »

ثم ملتفتاً إلى سالوست : « أيها النبيل سالوست، قيل لي إن روما لا تضمُّ منازل من هذا النوع ؟ »

سالوست مبتسماً : « إنكم ، يا أهل بومبيي ، تعرفون كيف تمزِجون اليونان بروما ! أرجو أن تكونَ مآكلُكَ ، هذه

الليلةَ ، في نفس المستوى الفني لأثاثك ومنزلك ! »

ديوميد : « سوف ترى ، يا عزيزي سالوست ، أننا ، نحن البومبيين ذوّاقة و .. أغنياء كذلك ! »

سالوست : « الذوقُ والثّراءُ شيئانِ هامّانِ بالفِعل .. آه .. ها هي جوليا الحسناء ! »

في تلك اللحظةِ دخلتْ جوليا وهي ترتدي ثوباً أبيَضَ مُوَشّىً بخيوطِ الذهبِ واللآلىء . وما إنْ حيَّتْ ضيفَيْها حتى وَصَلَتْ مجموعةٌ من المدعوِّين : بانسا وزوجتُهُ ، ليبيدوس ، كلوديوس ، عَضْوُ مجلس الشيوخ الروماني . وبعد فترةٍ قصيرةٍ جاءت الأرملة فولفيا ، والشاعر فولفيوس ، وقائدٌ من مدينة هركولانوم[1] حاربَ إلى جانب الامبراطور تيتوس ، واغتنى في أثناء الحرب بشكلٍ مُذْهل . وجاء من بعدهم ضيوفٌ أقلُّ رفعةً . أما إيون فقد تأخَّرَتْ وكانَ الجميعُ في انتظارها .

بينما كان الضيوفُ يتبادلون التحياتِ ، وَجَّهَتْ جوليا الخطابَ إلى غلوكوس ، الذي كان بجانبها ، قائلةً :

« أمن الفضائلِ في أثينا أن يتفادَى المرءُ أولئكَ الذين كان

(١) هركولانوم مدينة إيطالية قديمة ردمت تحت الرماد عام ٧٩ بعد الميلاد على أثر ثوران بركان « فيزوف » ، ثم ظهرت من جديد عام ١٧١٩ .
(المعرب)

يسعى وراءهم في الماضي ؟! »

غلوكوس : « كلا ، أيتها الحسناء جوليا ! »

– « ومع ذلك يبدو لي أن هذه صفةٌ من صفات غلوكوس ! »

– « إن غلوكوس لم يبتعدْ قَطُّ عن صديق ! »

قال هذا وهُوَ يَضْغَطُ على كلمة « صديق » .

جوليا : « وهل يمكن أن تُعْتَبَرَ جوليا من ضمنِ أصدقائه؟ »

– « إن الامبراطورَ نفسَهُ ليفخَرُ بصداقة امرأةٍ بمثـلِ فتنتِـها ! »

– « إنك تتهرَّبُ من الإجابة على سؤالي !.. قلْ لي، أصحيحٌ أنكَ مُعْجَبٌ بـ« ايون » النابولية ؟ »

– « ألا يدفعُنا الجمالُ دوماً إلى الإعجاب ؟ »

– « يا لكَ من يونانيّ بارع ! أجبْني بصراحة: هل يمكنُ أن تُصْبحَ جوليا صديقةً لك ؟ »

– « إنْ أوْلَتْني هذه العنايةَ فسأشكرُ الآلهةَ؛ واليومُ الذي تشرِّفني فيه بصداقتها سيتَّسِمُ بالبياض بين الأيام ! »

– « ومع ذلك أرى، وأنتَ تقولُ لي هذا الكلامَ، قلَقاً في نظراتِكَ كأنما تتحرَّق لرُؤْية إيون ! »

في تلك اللحظة دخلَتْ إيون ، فَفَضَحَتْهُ نظراتُهُ أمامَ منافِستِها التي تملأ نفسَها الغَيْرة .

غلوكوس مجيباً: « هَلْ يَحُولُ الاعجابُ بامرأةٍ دونَ

مصادقةِ امرأةٍ أخرى ؟ »

جوليا : « بالطبع لا .. سأحاولُ أن أُوَجِّهَ تفكيري على هذا الشَّكل .. كلمة أخرى: أصحيحٌ أنَّكَ ستقترِنُ بإيون » ؟

– « إن كانت من نصيبي ، فهذا غايةُ أملي ! »

– « إذن تَقَبَّلْ مني هديةً في هذه المناسبة .. عندما تنتهي المأدُبة ، ويتفرَّق الضيوفُ أرجو أن تَهْبط إلى جناحي كي أسلِّمكَ الهدية .. حَذَارِ أن تنسى ! »

ثم تحوَّلَت نحو بانسا ، بينما اتجهَ هو للقاء إيون . وكانت زوجة بانسا والأرملة فولفيا تتحدثان عن قصّات الشعر الحديثة. ولما اقتربت جوليا سألتْها فولفيا :

« هل رأيت النَّمِرَ الذي وصل أخيراً ؟ »

– « كلا ! »

– « كيف ؟ جميعُ النساء ذهَبْنَ لرؤيتـهِ .. إنهُ جميلٌ حقاً ! »

– « آملَ أن يجدوا له وللأسد مجرماً أو مصارعاً يستطيع مواجهتَهما ! »

ثم التفتت إلى زوج بانسا – المشرف على الألعاب – واستطرَدَتْ قائلةً :

« يبدو أنَّ زَوْجَكِ لا يقـومُ بالنشاط المطلوب ، والمهرجانُ على الأبواب » .

زوجة بانسا : « ما حيلَتُهُ والقوانينُ في هذه الأيام في مُنْتَهَى التساهل ؟ إن الاحكام بمواجهة الوحوش نادرةٌ جداً .. ثم إن أجرأ مصارعي الوحوشِ يتأبَّوْن الأسودَ والنمورَ لخطرِها ، ويفضِّلونَ مصارعةَ الثيرانِ والخنازيرِ البرية ! »

ودَقَّ الجرَسُ إيذاناً بالتَوَجُّهِ إلى قاعةِ المأدُبة ، التي صُفَّتْ فيها ثلاثُ موائدَ على شكلِ حَدْوَةِ الحصان . أمام الجهة الخارجية وُضِعَتِ السُّرُرُ والمقاعدُ . أما من الداخل فلم يجلِسْ أحدٌ لأنَّ المجالَ متروكٌ للخدم . وقد جلَسَتْ جوليا – وهي مَلِكَةُ الحفلة – على طرَفٍ من أحَـدِ الجانبين ، بينما جلَسَ والدُها ديوميد على الطَّرَفِ الآخر . وعلى جانبَيْ المائدةِ الوُسطى – وهما مكانا الشَّرَف – جلَسَ رئيسُ البلدية وعُضْوُ الشيوخ . وقد نُصِبَتْ قُبَّةٌ فخمةٌ فوقَ المَدْعُوِّين ، ووضعت على الجوانب شمعداناتٌ عاليةٌ وزُيِّنَتِ المائدةُ بتماثيلَ مختلفةٍ من البرونز والفضَّة والعاج . وعلى المقاعدِ المطعَّمة بالصَّدَفِ وُزِّعتِ الوسائدُ المطرَّزَةُ المَحشُوَّةُ بالريش . وانتثرَتْ هنا وهنالكَ ركائزُ تفَوْحُ منها رائحة المُرِّ (صمغٌ طيِّبُ الرائحةِ) والبخور .

وبَعْدَ أن تُلِيَتِ الصلاةُ للآلهة راحَ العبيدُ ينْثُرونَ الزُّهورَ على الأرضِ وفَوْقَ الأسرَّة ، ويُتَوِّجُونَ الضيوفَ

بأكاليلَ من الغارِ والوَرْدِ رُبِطَتْ بالشرائطِ الحريرية .

وحار ديوميد في تعيين مدير المأدُبة ، فعُضْوُ الشيوخ لا يستطيعُ أن يقومَ بهذهِ المهمَّةِ لِكِبَرِ سنه ، ورئيسُ البلدية من مرتبة أدنى من مرتبة عضوِ الشيوخ ؛ وخرَجَ من حَيرته عندما وقع نظرُهُ على سالوست ، القاضي المرِح ، فاختارَهُ . فقال القاضي مازحاً :

« سأكون مَلِكاً متساهلاً مع الذين يَشْرَبونَ دونَ دعوة ، أمّا مع المتقاعسينَ فسأكونُ صَعْباً جداً ، فخُذُوا حِذْرَكم . »

وحمل العبيدُ طسُوتَ الماءِ المُعَطَّر ، ليغسِلَ الضيوفُ أيديَهُم . ثم بدأ الأكل . وكانت جوليا تتابعُ غلوكوس وإيون اللّذَيْنِ كانا يجلِسانِ متجاورَيْنِ ويتحادثانِ بصوت منخفِض .

وساد الحَفْلَةَ جوٌّ من المرح ، إذ وَزَّعَ ديوميد على المدعوِّين أوراقاً فيها أسماء هدايا مُعَيَّنة . وكان كلُّ واحد يَسْحَبُ ورقة ، ثم يأخذُ هديَّتَهُ . فكانَتْ بعضُ الهدايا النسائية تخرجُ للرجال والعكسُ بالعكس ، فيتضاحكُ الجميع . إلا أن حادثاً أزعج السامرين ، فالهديةُ التي كانت من نصيب غلوكوس ، وهي عبارة عن تمثال « لفورتونا » ، إلهة الحظ والثروة ، وقعَتْ من يد العبد فتحطَّمَتْ . فتشاءَمَ الجميعُ ،



« ولما جاءته بالكأس اخذ يحتسيها . »

وراح كلٌ واحد يطلبُ من الآلهة أن تدفع عنه شرّ المُخبّأ.

وبعد أن رحل كلّ الضيوفِ قادت احدى الإماء غلوكوس إلى حجرة جوليا التي كانت تنتظرهُ ، قالت وهي تخفضُ عينيها :

« أرى أنك تحبُّ إيون فعلاً .. والحقُّ أنها جميلة .. خُذْ هذهِ اللآلىء ، يا غلوكوس ، لخطيبتِك .. لتمنحها جونون (ابنة جوبيتير وإلهة الزواج) طولَ العمر ! »

قالتْ هذا وقدّمتْ إليه علبةً فيها عقدٌ من اللؤلؤ ذو حبّات كبيرة . وبينما كان يصوغُ لها عبارات الشكرِ قدّمتْ إليه كأساً بعدَ أن لمستها بشفتيها وقالت : إشربْ نخبَ عروسك !

وكانتِ العادةُ تقضي أن يشربَ الكأسَ دفعةً واحدةً ! وتابعت جوليا حركاتِه ، بالرّغمِ من أنّ الساحرةَ أنبأتها بأنّ التأثيرَ لا يتمُّ إلا بعدَ ساعات. وأخرته عندها وقتاً طويلاً ولكنّها لم ترَ أيّ أثرٍ ، فمنّتْ نفسها بأنْ يحدُثَ التأثيرُ في اليومِ التالي .

١٧. السائل السحري يفعل فعله

عندما عادَ غلوكوس إلى منزلهِ وجدَ نيديا جالسةً

قُرْبَ المدخل .. لقد كانتْ تُريدُ أن تعرِف مفعولَ الشّرابِ بسرعةٍ .

غلوكوس : « هل تنتظرينني ، يا صغيرتي » ؟

— « كلا ! بل جئتُ لأسقيَ الزهور .. وها أنا أستريحُ بعد أن انتهَيْت . »

— « الجو حارّ، وقد ألهبَتْني الخمرة، فهل لكِ أن تحملي إليّ شيئاً مرطّباً ! »

ها هوَ يعطيها الفرصة بنفسه .. لقد دقّ قلبُها واضطربت ولكن غلوكوس لم يلاحظِ التغيُّر الذي طرأ عليها .

نيديا : « سآتيك بكأسٍ من المرطب الذي تعودت إيون أن تُعِدَّه ، وهو مزيج من الخمرِ والعسَلِ عليه بعض الثلج ! »

ولما جاءته بالكأس أخذَ يحتسيها ، وما إن شَرِبَ رُبْعَها حتى لاحظ تغيراً بارزاً في نيديا ، قال :

« نيديا ، ما بكِ يا صغيرتي ؟ هل أنتِ مريضة ؟ إنّ وَجْهَكِ ينبىء بذلك ! »

ووضعَ الكأس جانباً ، وقام من مكانه ليسعفها . ولكنه شعَرَ بألم مفاجىء، ودوار ، وخُيل إليه أن الارض تهرب من تحت أقدامِهِ بسرعة مذهلة . ثم تولاه مَرَحٌ وخِفَّةٌ عجيبان ، فأرسَلَ قهقهَةً رنّانةً طويلةً ، وصفّقَ بيديه ،

وقفزَ كالأطفال .

وصُعِقَتْ نيديا وهي تستمع إلى كلامه غير المترابط . وراحت تفتِّش عنه في ظلمتها، حتى وَقعَتْ عليه يداها ، فركعَتْ عند قدميه ، وقبّلت ركبتيه ، وهي ترسل الدمع وتقول :

«كلّمني ! رُدَّ عليّ ! قل لي إنك لا تُبْغِضُني .. لا تحقِدْ عليَّ .. تكلّمْ، تكلّمْ .. أستحلِفُكَ بالآلهة أن تتكلم !»

غلوكوس : « قبرص .. يا لها من جزيرةٍ رائعة ! فيها يملأون شرايينَ الناسِ بالخمرة بدَلَ الدَّم !.. لا نَسْمةَ هواء تتحرَّك ! .. أرَى ينبوعاً تنبثقُ مياهُهُ تحت أشعّةِ الظهيرةِ المحرقة .. أيّتُها النافورةُ ، هيهاتِ أن تتمكني من نشرِ الشعاعِ الباهرِ لشمسي الإغريقية ، مَهْما نشطَتْ أذرُعُكِ الفضيّة ! ما هذا الشّبَحُ المرتسِمُ خلْفَ الأغصان ؟ إنّهُ يَزْحَف.. رأسُهُ متوّجٌ بأوراقِ السنديان.. في يدِهِ وعاء تندلقُ منهُ أصدافٌ كريمةٌ وماءٌ براق .. انظروا، يا لوجههِ الغريبِ الذي لا يبتسم ! إنّهُ يتقدّم ، مقطّباً ، رهيباً .. إنّهُ جنّيّة ، مَنْ رآها فقَدَ عقْلَهُ .. ها هي تكتشفني .. لنَهْرُبْ ! »

نيديا : « آه يا غلوكوس ! ألا تَعْرِفُني ؟ كُفَّ عن هذا الهذَيان .. بحقّكَ لا تَهْذِ .. إن كلماتِكَ تقتلني ! »

وتمثّلَتْ إيون لعينَيْه في وجهِ نيديا ، فمرّ بيده على شعرها ، وصاح :

« أقسم بفينوس وديانا أنني ، رغم حمليَ العالمَ على كاهلي، مثلُ هرقل مُواطني . أيها الرومان الأغبياء ! كل شيء عظيم كان إغريقياً .. لولانا لم تكن لكم آلهة .. ماذا كنت أقول ؟ العالَم ؟ آه، العالم .. أنا مستعد أن ألقيه في العدم من أجل ابتسامة من إيون ... »

ثم تحول صوته إلى التفجع والاستعطاف :

« إيون .. ألا تحبينني .. الساحرُ كذَبَ عليكِ .. سوّدَ صفْحتي عندكِ ، وصدّقْتِهِ .. لا تتْركيني الآنَ .. لم تعُدْ أمامِي سوى فسحةٍ ضيّقةٍ للحياة .. دعيني أنظرُ إليكِ حتى النفسِ الأخيرِ .. ينبغي ألا تتركيني ، فآباؤُكِ هم آبائي .. أيّها الشبحُ الأسود ، لا تقِفْ بيني وبينَ إيون .. إنني أعرفُك .. أنت ارباسيس .. أترُكْ هذه الأرضَ .. سحرُكَ لن يفيدَك ... »

وصرخت نيديا : « غلوكوس ، غلوكوس » ! ثمّ ارتمَتْ على الأرضِ فاقدةً الوعي .

غلوكوس : « من يناديني؟ أأنتِ تناديني ، يا إيون ؟ لقد أخذوها .. عليّ أن أنقذها .. أين خنجري .. آه، ها هو ! »

وانطلق خارجاً بخطىً واسعةٍ مترنّحة .

١٨. مصرع ابيسيدس

قرّرَ أرباسيس أن يذهبَ في نفسِ الليلةِ إلى منزل جوليا ليعرِفَ نتيجةَ ما صَنَعَتْ . في ذلك الزمانِ كان الرجالُ لا يَخرُجون إلاّ ومعهم ألواحُهُمْ وأقلامُهم . وكانَ القلمُ عبارة عن سلاح جارح ، كالخنجر سَواءً بسواء . فكاسيوس قتل قيصر في مجلس الشيوخ بواسطة قلم من هذا النوع . وقد حمل أرباسيس لوحه وقلمه وخرج .

كان القمرُ ينشُرُ أشعّتَهُ على الغابة الصغيرة المكرّسة للإلهة « سيبيل » (التي تمثل القوى الطبيعية) . وكانتِ الأشجارُ القديمةُ تلقي ظلالَها العملاقةَ على الأرض ، وبينها يختفي المعبدُ الصغيرُ المكشوف . وفي هذا الهدوء الشاملِ ، الذي لم يكنْ يُسْمَعُ فيه سوى غناء بعيدٍ أو أصواتِ مرَحٍ نائيةٍ لسامرينَ طال بهم السَّهر ، دخل كالينوس الغابة وهو يسترق الخطو ، واختفى وراء المعبد .

في هذه اللحظةِ وصَلَ ارباسيس إلى مدْخل الغابة ، ومرَّ أمامَهُ مصادفةً ابيسيدس الذي كان متوجهاً لمقابلة أولنتوس الناصريَّ .

أرباسيس : « هيه ، ابيسيدس ! في المرة الأخيرة ، التي التقينا فيها ، كنتَ عدواً لي .. وقد أحببتُ أن أراك بعدها ..

إني أريد أن تظلَّ تلميذي وصديقي ! »

وانتفضَ ابيسيدس ، ونظر إلى أرباسيس باحتقار قائلاً :

« إذن عُدْتَ من القبر ، أيها الحقير ! لا تأملْ بعد الآن أن تتمكّنَ من إلقاء شباكِكَ القذرةِ حولي ! »

قال أرباسيس وقد اضطرب صوتُهُ من شدة الانفعال :

« على رِسْلِك !.. إخفِضْ صوتك ، فلو سمعكَ أحدٌ غيري ... »

— « أتهدّدني ؟ إني أتمنّى أن تسمعَ كل المدينة ما أقول ! »

— « أنت غاضبٌ لأنّني كنتُ عنيفاً مع أختك .. ولكنّ ذلك كانَ في ساعةِ جنون .. إني ندِمْتُ على ما فعلْتُ ، فاعفُ عني ! أنا لم أطلبْ قطُّ الصَّفْحَ من إنسان .. سأُصْلِحُ كل شيء .. سأطلب يدَ أختك ، وسأكرِّس حياتي لأُنسيَها الخطأ الذي ارتكبتُهُ في حقّها ! »

— « إن أختي تُبغضُكَ وتُبغِضُ حتى الهواءَ الذي تتنشّقُهُ ، أما أنا فلا يمكنُ أن أغفرَ لكَ ، فقد حاولْتَ إفسادي ، وحمّلْتَني ، لِلحظةٍ ، على أن أتنكّر لأخلاقي ومبادئي.. إنني سأكشفُكَ أمامَ أعينِ الناس .. سأعرّيكَ أمامهُم .. سأفضَحُ النبوآتِ الكاذبةَ التي تمثّلُها ، ولَنْ يُثيرَ اسمُكَ من بعدِ ذلكَ سوى السُّخريةِ واللّعنات ! »

وأدار أرباسيس عينيْه فيما حوْلَهُ ، فلم يرَ أحداً ،

فسَحَبَ القلَمَ ــ الخنجر (أو المِرقم) وطعَنَ الكاهنَ الشابّ طعنتَيْنِ في صَدْرِهِ سَقَطَ على أثرهما جثّةً هامدة .

ونظّفَ المُجرِمُ الشَّرِسُ سلاحَهُ على الحشائش ، وبثوبِ القتيلِ ، وهَمّ بمغادرة المكان . في تلك اللحظة ظهرَ له شاب يسيرُ مترنحاً ؛ فما لبثَ أن عرَفَهُ تحت أشعةِ القمــر .

ولما وصل غلوكوس أمام الجثة صُدِمَ ، رغم الفوضى التي استولت على عقله . ومرَّ بيدِهِ على جَبْهَتِهِ ، ثم انحنى فوق الجثّةِ وحاول رَفْعَها !

— « إنّكَ لتنامُ نوماً عميقاً.. ماذا قال لكَ القمر؟ آنَ لكَ أن تنهضَ من نومك ! »

وسُرْعانَ ما ضَرَبَ أرباسيس غلوكوس ، فألقاهُ فوق جثّةِ القتيل وراحَ يَصيحُ طالباً النّجدةَ . وقد ظلّ غلوكوس دونَ حراكٍ بفعلِ السائلِ السامّ الذي تناولَهُ إلى جانب الضَّرْبة التي سدّدَها إليهِ أرباسيس . وسُرْعانَ ما أخرجَ هذا مِرقمَ غلوكوس من وسَطِهِ ودسّهُ في جُرْحِ القتيلِ ثُمّ أخرجَهُ وألقاهُ فوْقَ الجثّةِ ، وهوَ لا يكفُّ عنَ الصياحِ وطلَبِ النجدة .

وجرَى بعْضُ المواطنينَ إلى مَصْدَرِ الصّوت ؛ ولمـا رأوْا الجثّةَ وعرَفوا أنّها لكاهنٍ ، أنكروا هذه الجريمةَ

واستَفْظَعُوها . وسألوا عمّنِ اقترفها ، فأشار أرباسيس إلى غلوكوس . ولما عرَفُوه صاحوا جميعاً :

« غلوكوس ؟ هذا شيءٌ غير معقول ! »

وقال أحدهم لجاره :

« يغلبُ على ظني أن هذهِ هي فعلةُ أرباسيس ! »

وأقبل ضابط يَشُقُّ الصفوف . ولما سألَ عن القاتل ، أشاروا إلى غلوكوس ، فقال :

« هو ؟ يلوح لي أنه ضحية ؟ مَنِ الذي يتهمه ؟ »

فقال ارباسيس وهو ينتصب :

« أنـــا ! »

ويبدو أن ملابسَهُ الفخمةَ قد أثّرَتْ في الضابط ! واستطردَ أرباسيس يقول :

« أنا ارباسيس .. إن اسمي معروفٌ في بومبي .. بينما كنت أجتاز الغابةَ رأيتُ هذا اليونانيَّ مع الكاهن .. كــان النقاشُ بينهما بالغَ الحِدّة . وقد ادهشَتْني حركات اليونانيّ غيرُ المتزنة ، وخُيِّل إليَّ أنّهُ سكرانُ أو مجنون .. ولم يَلْبَثْ أنْ سَحَبَ قلَمَهُ وطعَنَهُ بِهِ طعنتَيْن قبْلَ أن أتمكّنَ منَ التفريقِ بينهما . »

وقال الضابط :

« ها هُوَ يَفْتَحُ عيْنَيْه ! .. تكلّمْ أيُّها المُتّهَم ..

ما هُوَ رَدُّك على التهمة الموجهةِ إليك ؟ »

— « التهمة ؟ .. آه .. آه .. عندما وَجَّهَتِ الساحرةُ العجوزُ حيّتَها عليَّ ، ماذا كان في إمكاني أن أصنع ؟.. ولكنني مريض .. مريض .. إحملوني إلى سريري.. دماغي يحترق.. »

قال الضابط :

« إنه يَهْذي .. لا شكّ أنّهُ في هذه النَّوْبَةِ الجنونيةِ قضى على الكاهن ! سَيَمْثُلُ أمامَ القاضي ! »

في هذا الوقتِ شَقّ اولنتوس الجمعَ بعنفٍ ؛ ولما رأى ابيسيدس قتيلاً طارَ صوابُهُ .. ودارَتْ عيناه في الجَمْع ، ثم استقرتا على أرباسيس . قالَ وهو يَرْتَعِدُ :

« لقد اغتيلَ هذا الشاب ، فمَنْ هُوَ القاتل .. تكلّمْ يا أرباسيس ، لأني ، وحقِّ الإله الحيِّ ، لا أعتقِدُ أنّ أحداً غيرَكَ فَعَلَ هذا ! »

وظهر بَعْضُ القلق على وجه أرباسيس ؛ ولكنّهُ ما لبثَ أن تصنّعَ الغَضَبَ والاحتقارَ قائلاً :

« أنا أعرفُ مَنْ هُوَ هذا الرجلُ ، الذي يتّهمني : إنه ، أيها المواطنون ، أشرَسُ المسيحيِّين ! فهل تُدْهَشُون ، بَعْدَ هذا ، أن يتهم مصرياً بقتل كاهن تابعٍ لمصر ! »

وصاح عدد من الموجودين :

« نحن نعرفُ هذا الكافرَ بآلهتنا .. إنه أولنتوس النصراني ! »

قال أولنتوس :

« على رِسْلِكم ، يا إخوتي ! هذا الكاهنُ القتيل اعتنَقَ المسيحية .. وقد أطْلَعَني على الأعمال الشائنة التي يقوم بها أرباسيس وأتباعُـهُ ، وكان يستعدُّ لكَشْفِها أمـامَ الجمهور .. فمن يخشَى هذه الشهادةَ غير أرباسيس ؟ »

وتقدَّم الضابطُ وسأل أولنتوس :

« هل عندكَ دليلٌ على اتّهامِكَ لأرباسيس غيرُ هذا الظن المُبْهَم ؟ »

.فلم يَرُدَّ أولنتوس . وهنا انبرى ارباسيس وقال :

« أنت تدَّعي أنَّ القتيلَ اعتنَقَ ديانتكَ ، فهل لَكَ أن تُقْسِمَ على ذلك بهذِهِ الإلهة « سيبيل » ! »

— « أيُّها المَعْتوه ! أنا لا أؤمنُ بآلِهَتِكم ولا بمعابِدِكم فكَيْفَ تُريدُني أن أقسِمَ بسيبيل ؟ »

هنالكَ صاحَ الناسُ الموجودون :

« ليَسْقُطِ الكافر ! إن الأرضَ ستَبْتَلِعُنا إن صبَرْنا على هذا الكفر ! الموتُ لهذا الرجل ! »

وصاحتْ إحدى النساء :

« إلى الوحوش .. أصبحَ الآنَ عندنا واحدٌ للأسد وآخرُ للنَّمِر ! »

وقال الضابط :

« إنْ كنتَ لا تؤمنُ بسيبيل فبأيّ إلهٍ من آلهتِنا تُؤمِن ؟ »

وردَّ المسيحي بصوتٍ مرتفع :

« لا أؤمنُ بأيّ منهم ! كيف تستطيعون ، أيها العُميان ، أن تؤمنوا بأصنامٍ من الخشب والحجر صَنَعَتْها يدُ الانسان ؟ هل يمكنُ أن تكونَ هذه الإلهةُ المزعومة قد خلَقَتِ الجنسَ البشريَّ ؟ إنها هي نفسُها من صُنْعِ الانسان ! »

وبمنتهى الخِفَّةِ قفزَ إلى تمثالِ الإلهة « سيبيل » وقلَبَهُ عن قاعدتِهِ ، وصاح :

« أنظروا .. إنها عاجزة حتى عن الثأرِ لنفسِها فكيفَ تكون جديرةً بأن تُعْبَد ؟ »

ولم يَسْمَحِ الجمهورُ لأولنتوس أن يقولَ أكثر من ذلك ؛ بل هجَموا عليه ليمزِّقوهُ جزاءَ التحقيرِ الذي وجَّهَهُ إلى الآلهة . ولكنَّ الضابطَ أوقفَهُمْ ، وقال إن المتَّهَمَيْن سيمثلان أمام المحكمة . وأمرَهُمْ أن يحملوا القتيلَ على نقّالة . وفي تلك اللحظة ظهر كالينوس ، كاهنُ ايزيس ، وقالَ إنَّهُ سيتولَّى نَقْلَ القتيل ؛ فسمَحَ له الضابطُ بذلك . والتقَتْ أنظار ارباسيس وكالينوس ؛ فداخلَ أرباسيسَ خوفٌ وقلقٌ إذ قد يكون كالينوس قد شاهَدَ ما حدث.

١٩. اتهام غلوكوس بالقتل ...

عندما وَصَلَ أرباسيس إلى منزل سالوست رأى شخصاً ، مُلْتفاً بمعطف ، ينامُ على العتبة . فدفعه اربازيس بقدمه وقال :

« إنهَضْ .. إنك تَسُدّ الممرّ ! »

كانت تلكَ نيديا ، قالت :

« مَنْ هذا ؟.. إنني أعرِفُ صَوْتَك ! »

أرباسيس : « ماذا تفعلِينَ هنا ، أيتُها العَمْياء ، في هذهِ الساعة ؟ عُودِي إلى بَيْتِكِ ! »

وارتمَتْ نيديا عِنْدَ قَدَمَيْهِ وهيَ تبكي وتَنْتَحِب :

« أيها الرَّجُلُ العظيمُ ، القادرُ ! أنقِذْهُ .. إنّهُ بريء .. إنني أنا سَبَبُ ما حدَثَ .. إنه مريضٌ مشرِفٌ على الموت ، في الداخل ؛ وهُمْ لا يمكّنونني من الوصولِ إليه .. إشفِهِ . لا بُدَّ أنك تعرف عُشْبَةً .. أو باباً من السحر يُعيدُ إليه صوابه ؛ فشرابُ الساحرةِ هو الذي أحدَثَ فيه هذا الانقلاب . »

— « إصمتي ، أيتها البنت .. أنا أعرِفُ كلَّ شيء .. أنت تذكرين أنني رافقْتُ جوليا إلى المغارة .. لا تلومي نفسَكِ .. إنني سأرى المجرم .. قد أستطيع انقاذَهُ .. وداعاً ! »

وتركها ودخل إلى منزل القاضي ؛ فقال الأخير :

« ماذا ! أرباسيس ، في هذه الساعة ! »

— « كيف حالُ سجينك ؟ يُقالُ إنه استردَّ وَعْيَهُ ؟ »

أجاب سالوست ، وهو يمسح دمعةً عن خده :

« نعم .. ولكن جسده تلقّى ضربةً هي من القسوة بحيث لم أعد أستطيع التعرف على ملامح هذا الصديق الذكي المرح.. والعجيبُ في الأمر أنهُ لا يستطيعُ تفسيرَ ما أصابه فجأةً ، وهو لا يذكرُ ما حدث إلا بشكلٍ غامض جداً .. ولكنه ، بالرغم من شهادتك ، أيها المصريّ الحكيم ، يُعْلن ، بشكلٍ قاطعٍ ، براءتَهُ من دَم ابيسيدس ! »

— « إن قضيةَ صديقك ، يا سالوست ، تستحقُّ أن يُفْصَلَ فيها بشيء من التساهل .. وإذا استَطَعْنا أن نحملَهُ على الاعتراف وبيان السبب الذي دفعَهُ الى اقترافِ جريمتِهِ ، فقد يصبحُ لنا أملٌ في أن يخفِّف مجلسُ الشيوخ الحكم .. لهذا حصلتُ على إذن بمقابلةِ الأثيني ، هذهِ الليلةَ ، ما دامَتِ المحاكمةُ تَبْدَأ غداً . »

وقادَ سالوست أرباسيسَ إلى الحجرةِ التي كانَ غلوكوس محتَجزاً فيها ، ثم انسحَبَ نزولاً على رغبةِ أرباسيس .

كان غلوكوس راقداً . أين ذلك اللونُ الذي كان ينفجرُ بنضارة الشباب ؟.. لقد ذَوَى كلُّ شيء في وجههِ ، وغارَ خدّاهُ ، وزالَتْ حُمرةُ شفتَيْهِ اللتَيْن أصبحتا متقلّصتَيْن..

تلك هي آثارُ الصِّراعِ الذي احتدمَ ، داخلَ هذا الانسانِ ، بين العقلِ والجنونِ ، بينَ الحياةِ والموت .. وانتصرَ الشبابُ آخرَ الأمر ، ولكن آثارَ المعركةِ خلَّفَتْ هُموداً بَعْدَ نشاط ، وشحوباً بَعْدَ نضارةٍ في هذا الجَسَدِ المتناسقِ الجميل !

بالرغمِ من أنَّ غلوكوس لم يكن نائماً ، فإنه لم يَتَنَبَّهْ إلى وجود أرباسيس . وجلسَ هذا بجانب سريره ، ثم خاطبه قائلاً :

« غلوكوس ! لقد كنا عَدُوَّين .. ولكنْ هأنذا قد أتيتُ إليك منفرداً كصديق ، بل كمخلِّص ! »

وانتفضَ المريض انتفاضةَ جوادٍ مذعورٍ فوجىء بمرأى نَمِرٍ أمامه ؛ واستوى جالساً وهُوَ يَلْهَثُ إذ رأى أمامَهُ عَدُوَّه اللَّدودَ الشَّرِس !

والتقتِ النَّظَراتُ ، وطالَ بها التَّواجُه .. واحمرَّ وجهُ المريض ، واصفرَّ وجه الزائرِ المريب ! ثم تهالكَ غلوكوس على سريرِه مرّةً أخرى ، وهو يتساءل ضائعاً :

« أأنا لا أزالُ أحلم ؟ »

— « كلا ! إنك لاتحلم .. أقسِمُ بيدي اليمنى ، برأس أبي أنك أمامَ الرجلِ الذي يستطيعُ إنقاذَكَ ! أنا أعلمُ أنك مَعْذور .. لم تكن في وَعْيِكَ عندما اقترَفْتَ جريمةَ قتل ..

بل جريمةً ضد المقدَّسات .. لا تَضْطَرِبْ .. كنْ هادئاً ! لقد رأيتُكَ بعينَيَّ ترتكبُ الجريمةَ . ولكنني أستطيعُ أن أنقذَكَ .. أستطيعُ أن أثبتَ أنك لم تكنْ في حالةٍ طبيعية .. وقِّعْ هذهِ الورقَةَ .. إعتَرِفْ بأنك قَتَلْتَ ابيسيدس وستنجو من حكم الإعدام ! »

غلوكوس : « ماذا أسمَعْ ؟ أبيسيدس ؟ ألم أرَهُ مُمَدَّداً على الأرض والدَّمُ يسيلُ من جراحِهِ ؟ ألم أرَهُ مَيِّتاً ؟ ماذا تقولُ أيها الرَّجل ؟ أتدَّعي أنني أنا الذي قتلْتُهُ ؟ أنت كاذبٌ ، أيها الرجلُ ! كاذبٌ ! كاذب ! »

— « لا تُثِرْ أعصابَكَ ، فالجرمُ ثابت ! دَعْني أُنشِّطُ ذاكرتَكَ ! تذكَّرْ أنكَ كنتَ سائراً بجانب الكاهن ، وكنتما تتخاصمانِ بخصوص شقيقتِهِ .. أنتَ تعلم أنّهُ غيرُ متسامح ، وأنه نصفُ مسيحيّ .. كان ينتقدُ سلوكَكَ . ويُقسِمُ على أن يَحُولَ دون زواجك بأختِهِ .. ونالَ منك الغضبُ فطَعَنْتَهُ ! .. ماذا .. ألاتذكُرُ ذلك ؟ إقرأ هذهِ الورقة .. إنها تحتوي على هذا الاعتراف .. وقِّعها فتنجو ! »

— « أيها الوحش ! أَعْطِني هذه الوَرَقَةَ لأمزِّقَها ! أيمكن لي أنا أن أقتلَ شقيقَ إيون ؟! أيمكنُ أن أقتلعَ شعرةً واحدةً من رأسٍ تحبه إيون ؟! إنني أفضِّلُ أن أموت ألفَ مرةٍ على أن أرتكبَ مثلَ هذا العمل ! ثم تريدُني أن أعترف ؟! »

– « حَذارِ ! إما أن توقِّـعَ وتَنجو ، أو تُواجِـهَ المُدَرَّجَ ونابَ الأسد ! »

وظَهرَ الخوفُ على الشابِّ الأثينيِّ لِلَحظاتٍ ، ثم استعادَ رباطةَ جأشه ، وصاح :

«كلا ! لن أوقِّعَ أبداً . إنني لا أخشَى الموتَ ! إنَّ ما أخشاه هو العار ! أيُّ رجلٍ كريمٍ يجب أن يُلَطِّخَ اسمَه ليُنْقِذَ حياتَه ؟! أيمكنُ لي أن أكذِبَ وأجلُبَ لنفسي احتقارَ إيون ؟ إذهَبْ من أمامي .. دَعْني أعيشُ دون تأنيب وأموتُ دونَ وجل !»

– « هأنذا أترُكُكَ .. لن نلتقيَ سوى مرَّتَيْنِ بَعْدَ الآن : مرةً في المحكمة ومرَّةً يَوْمَ موتك ! »

ولقيَ سالوست في الخارج ، وكان هذا مُحْمَرَّ العَيْنَيْنِ من كثرةِ ما تناولَ من الخمرةِ ؛ قال له :

« إنَّهُ ما زالَ على عنادِهِ .. لم يَعُدْ هناكَ أمَلٌ في نجاتِهِ ! »

– « لا تَقُلْ هذا ، يا عزيزي أرباسيس ! »

في الحقيقةِ أنَّ سالوست ، الذي لا يَشْعُرُ ببُغْضٍ لأرباسيس، لم يكن مقتنعاً ببراءة صديقِهِ ، وإنْ كان بالغَ الحزن عليهِ ، متمنياً أن تحدُثَ مُعْجِزَةٌ لانقاذه .

وعندما خرجَ أرباسيس وجَدَ نيديا لا تزالُ عند الباب ؛

وقال في نفسه : « لا بُدَّ من وَضْعِ هذه البنتِ في مكانٍ أمين ، حتى لا تتحدَّث عن المشروب وتثيرَ الشكوك .. أما جوليا المتكبِّرَةُ ، فلا يمكِنُ لها أن تعترف . »

وصاحت نيديا :

« هل ستنقذُهُ ، يا سيدي ؟ »

– « إتبعيني ، أيتها الفتاة.. أريدُ أن أتحدَّث إليك .. إنني أطلب إليكِ هذا من أجلِهِ . »

٢٠. ولكن إيون عرفت قاتل أخيها ...

بعد أن انتهَتْ إيون من أداءِ الواجبِ نحو أخيها بحضور الاحتفال الدينيِّ الذي أقامه كَهَنَةُ ايزيس ، عادت ووصيفاتُها. وقد رأت أن تذهب إلى الحاكم ، لأنها موقنةٌ تمامَ اليقينِ أن خطيبَها بريء.. لقدكانت شكوكُها متجهةً نحو ارباسيس. وعلمَتْ أن غلوكوس مريضٌ في منزل سالوست ، وأنَّ يومَ المحاكمةِ قد عُيِّن .

ودخلتِ المدينةَ التي كانت مُقْفِرةَ الشَّوارع ، لأنَّ الوقتَ مبكِّرٌ جداً . ولم تلبَثْ أن صادَفَتْ محفَّةً مغطَّاة . وفجأةً أطلَّ منها وجهُ أرباسيس ، قال :

« أيتها الجميلة إيون ، يا تلميذتي وربيبتي ، عَفْوَكِ

عني إن كنتُ أقطعُ عليكِ التأمّلَ في ساعات حزْنِكِ !..
إنّ الحاكمَ يُريد منكِ ألاّ تتدخلي في هذه القضية .. ولما
كان متألماً من أجلك ، ولا يريدكِ أن تستسلمي للدموعِ
والوحدةِ فقد أوكلَ بنفسه أمرَ العنايةِ بكِ إلى حارسكِ
الشرعيّ .. وهاكِ الأمر الذي يضعكِ في عُهْدتي ! »

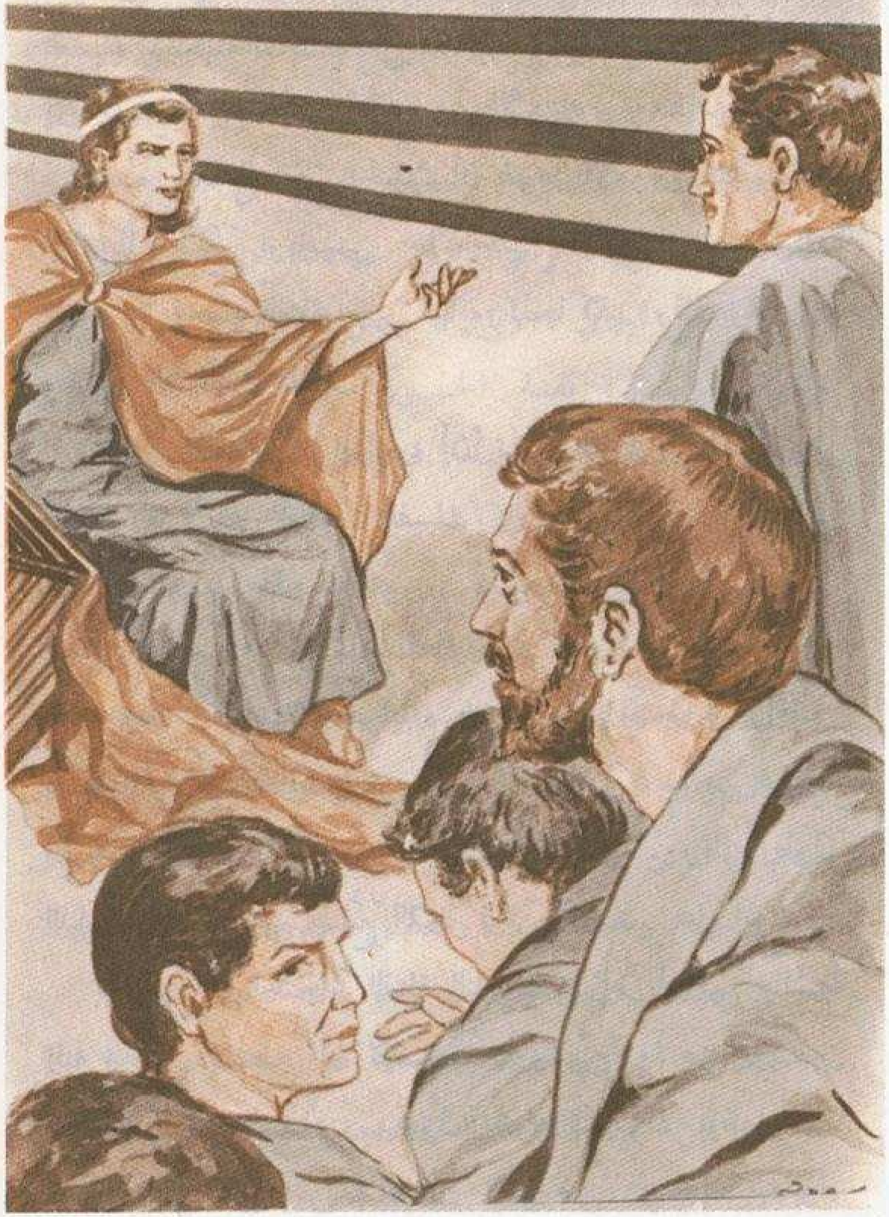
– « سِرْ في طريقك، أيها الرجلُ الجهنّميّ.. إنكَ أنت
الذي قتلتَ أخي .. فكيف توضَعُ أختُ القتيلِ بين يديكَ
الملطختينِ بالدماء ؟! هأنتذا تصفرُّ وتضطرِبُ ! تنحَّ عن
طريقي ، ودَعْني لأحزاني ! »

– « إنّ الحزنَ يجعلُكِ تفقدينَ المنطق .. إنني أصفحُ
عنك ، ولسوف تجدينني الصديق المخلِصَ ، كعَهْدِكِ
بي ! ولكنّ الطريق العامة غيرُ مناسبةٍ للحديثِ الذي أريدُ
أن أحدّثَكِ بهِ ، ولا للمواساةِ التي أدّخِرُها لك .. إنّ
المحفّةَ تنتظر .. هيّا أيُّها العبيد ! »

ومدَّ ذراعَهُ ، فَطوّقَها من وَسْطها ليُدْخِلَها إلى
المحفّة ؛ فما لبثَتْ أنْ تهاوتْ ، فاقدةً وَعْيَها . وحمَلَتْها
المحفّةُ تحتَ أعيُنِ نسائها المضطرباتِ الخائفات .

٢١. نيديا تعترف

تبعَتْ نيديا ارباسيسَ إلى منزلِهِ ، حيثُ اعترفَتْ لَهُ



« وكان وهو يدلي بشهادته يبدي العطف الكاذبَ على الجاني. »

بأنها هيَ التي سَقَتْ غلوكوس الشرابَ لا جوليا . وراحت العمياءُ المسكينةُ تُكِبُّ على قدمَيْهِ وتتوسّل إليه أن يُعيدَ إلى سيِّدِها الصحّةَ وينقذه من الإعدام ، اعتقاداً منها أنَّ في وُسْعِ هذا الساحرِ الخبيث أن يقومَ بالأمرينِ كِلَيْهِما .

ولما اطّلَعَ اربابسيسُ على جليّةِ الأمرِ ازدادَ يقيناً بضرورة إخفاء الفتاةِ حتى نهايةِ المحاكمة . وقالَ لها وهو يتصنّعُ العَطْفَ عليها :

« إنَّ عليكِ ، يا ابنتي ، أنْ تبقَيْ هنا ! إنني متألمٌ من أجلكِ ، لأنكِ أوقعتِ نفسكِ في هذا المأزق .. ولكنني سأعالجُ جميعَ هذهِ الأمورِ ، وسيعودُ إليكِ غلوكوس . بعدَ أيامٍ ، وهو في تمامِ العافية . »

ودونَ أن ينتظرَ جواباً ، خرجَ من الحُجْرةِ وأقفلَ بابَها بالمزلاجِ الحديديّ من الخارج ؛ وأمرَ عبداً من عبيدِهِ أن يحرُسَ السجينةَ . ويحملَ إليها طعامَها ، وظلَّ طولَ الليلِ يفكّر . حتى طَلَعَ الفجرُ فخرجَ للقبضِ على إيون .

معلومٌ أن احتجازَ الفتاة النابولية شيءٌ أساسيٌّ بالنسبة إليه ؛ فهي تستطيعُ أن تفضَحَهُ ، وتبيِّنَ ما بينهُ وبين غلوكوس من العِداء ، وتحوّلَ نحوه الشكوكَ بإظهارها العطفَ على غلوكوس . مع أنَّ المفروض، في هذه الحالة ، أن تطالب برأسِهِ لأنهُ قاتلُ أخيها . وها هيَ إيون في

حَوْزَتِهِ . سينتظرُ انتهاءَ المحاكمة واختفاءَ غلوكوس من الوجود ليرحَلَ بها عن البلاد . وراحَ يحلمُ بالحياة التي سيحياها بعدَ ذلك ، عندما تصبحُ إيون مِلْكاً له ، دونَ مُنافس .

بعدَ هذهِ الأحلامِ الجميلةِ خرجَ من دارهِ لحضورِ المحاكمة . وكانَ ، وهو يُدْلي بشهادتهِ ، يُبْدي العطفَ الكاذبَ على الجاني ، ويثيرُ ، بصورةٍ غيرِ مباشرةٍ ، هُوَ وكهنةُ ايزيس ، نقمةَ الجمهور حتى لا تأخُذَ المجلس بالمتّهمِ أيُّ شفقةٍ أو رحمة ، فيخفّفَ حكمَهُ عليه .

٢٢. نيديا تحاول إنقاذ غلوكوس

لما رأتْ نيديا أن انتظارَها قد طالَ زيادةً عن الحدّ المعقولِ ولم يَعُدْ إليها أرباسيس ، قامت تتلمّسُ الجدرانَ بيديها ، لترى إن كان لسجنها مَخْرَج . فلم تجدْ لهُ سوى بابٍ واحد ، والبابُ محكَمُ القَفْل . فراحت تصيح وتستغيث.

قال لها العبدُ المكلّف بحراستها وهو يفتحُ الباب :

« ما بكِ ، أيتها الفتاة ؟ هل لَدَغَتْكِ عقرب ؟ »

— « أينَ سيِّدُك ؟ لماذا أنا محجوزةٌ هنا ؟ إنني أحتاجُ إلى الهواء .. إلى الحرية ! دعني أخرج ! »

— « أنا آسف . يا صغيرتي المسكينة ! أنت لا تعرفين

أرباسيس .. إن أمرَهُ مرسومٌ امبراطوريّ ! لقد أمرَ أن تظلي مُحْتَجَزَةً ، وجَعَلَني حارساً عليكِ ، فلا أستطيعُ أن أخالف ! »

– « ولكنْ ، لِمَ يحجزُني ارباسيس العظيمُ ؟ ماذا يريدُ مني ؟ »

– « احق أنني لا أعرف .. لعلَّهُ يريدُكِ أن تخدمي سيدَتَكِ الجديدةَ التي جاءَ بها هذا الصباح ! »

– « ماذا تقول ؟ إيون هنا ؟ »

– « نعم ، ويبدو أن المسكينةَ جاءت رَغْمَ إرادَتِها .. ولكن أرباسيس يَعْرِفُ كيف يعاملُ النساء .. سيدتكِ هي ربيبتُهُ ! »

– « هل تستطيعُ أن تقودَني إليها ؟ »

– « ليس لديَّ أمرٌ بذلك.. ولكنْ إذا كنتِ تريدين أحداً تتحدثينَ إليه ، فأنا أستطيعُ أن أحدّثك .. أنا أيضاً وحيد ! بالمناسبة ، يقال إنك تسّالية . فهـل تعرفينَ باباً من أبوابِ السحر ؟ »

– « أسكتْ ، أيها العبد ! .. إذا كنتَ تريدُ أن تتحدث فقل لي ماذا تعرفُ عن غلوكوس ! »

– « سيدي ذهَبَ لحضورِ المحاكمة .. إنها قضيةٌ سيئةٌ بالنسبة إلى الأثينيّ ! »

– « محاكمة ؟ لأي سبب ؟ »

– « جريمة قتلِ الكاهنِ أبيسيدس ! »

– « آه .. صحيح .. سمعتُ شيئاً كهذا ، ولكنني لم أفهمْ كثيراً .. مَنْذا الذي يستطيعُ أن يَمَسَّ شعرةً في رأسه ؟! »

– « أخشى أن يُقدِمَ الأسدُ على ذلك ! »

فصرخَتْ نيديا ، وسَقَطَتْ عند قدَمَي العبدِ وراحَتْ تبكي وتقول :

« قُلْ إنك تمزَح .. بحقِّك تكلّم ! »

وَرَقَّ قلبُ العبدِ فسألها :

« ولكنْ ، لمَ تفعلينَ كلَّ هذا من أجله ؟ »

– « لقد كانَ كريماً في معاملتي ! »

– « أنا لا أفهَمُ شيئاً من القانون ، ولكنَّ المعروف أنه إن أُدِينَ فَسَيُقَدَّمُ للأسد أو النَّمِر .. إنَّ ارباسيس هو الذي يتَّهِمُهُ .. والجمهورُ يريدُ ضحيةً لحَلْبَةِ المصارعة ! »

ووضعَتْ نيديا رأسَها بين يَدَيْها وراحَتْ تُرْسِلُ الدموعَ السَّخيَّةَ .

وبَعْدَ أن أفرَغَتْ كلَّ ما لَدَيْها من دَمْع ، جلسَتْ في ركْنٍ من حُجْرَتِها وراحَتْ تُنَظِّمُ أفكارَها لتجِدَ وسيلةً لانقاذِ غلوكوس . إن ارباسيس هو الذي وَجَّـهَ التُهْمَةَ إلى غلوكوس ، وهو الذي حبَسَها ، إذن فلا بُدَّ

أنّ في خروجها من هذا السجْنِ خدمةً لغلوكوس .. وبالتالي يتعيّنُ عليها أن تَهرُبَ بأيٍّ وسيلة .

ولما جاء العَبْدُ إليها راحَتْ تحدّثُهُ عن السّحرِ الذي يَهمُّه ، قالت له :

« إنّ الليلَ هو الوقتُ المناسبُ لكَشْفِ خفايا المستقبل .. فعليكَ أن تأتيَ إليّ ليلاً .. هناكَ ثلاثُ وسائلَ لمعرفةِ المستقبل : أوّلاً بواسطة الحجر المتكلّم ، الذي يجيب على كل أسئلتك بصوتٍ كصوتِ الطفل .. ولكنّ هذا الحجرَ نادرٌ جداً وغالي الثمن . والطريقةُ الثانيةُ هي طريقةُ الماء ، ولكنها تتطلّبُ أدْعيَةً مُعيَّنَةً ليسَتْ في متناولِ يَدِنا . بَقيَتِ الطريقةُ الثالثةُ ، وهيَ طريقةُ الهواء ، إنّها مناسبةٌ لكَ تماماً ! »

– « ولكني أحب أن أعرفَ إن كانَتْ مخيفةً ؟ »

– « لا تَخَفْ .. سترى بنفسك .. إنْ كانتْ أمنيتُكَ مستجابةً ستسمَعُ فَوَرانَ الماء .. عندما تبرزُ النجومُ في السماء أترُكْ بابَ الحديقة مفتوحاً بَعْضَ الشيء ليَدْخُلَ منه الشيطان .. وضَعْ لَهُ ماءً وفاكهةً كدليلٍ على حُسْنِ الضيافة . وبعد غيابِ الشّفَقِ بثلاثِ ساعاتٍ تعال الى هنا واحمِلْ معكَ قدحاً من ماءٍ بالغِ النقاء ، باردٍ الى أقصى حدّ .. وسأضعُ في خدمتكَ الفنّ التساليَ ، الذي تعلّمْتُهُ

من أمي .. لا تَنْسَ الباب ! »

– « إعتمدي عليّ ! »

– « وماذا تمّ في أمرِ المحاكمة ؟ »

– « إن المحامين ما زالوا يترافعُونَ ، ولن تنتهيَ المحاكمةُ قبلَ صباح الغد ! »

– « وإيون .. كيف حالُها ؟ وأينَ هي ؟ »

– « لا شكّ أنها في حالةٍ جيدة، لأنها أثارت سيدي إلى حدّ أنّهُ راح يَضْرِبُ الأرضَ بقدمِهِ ويَعَضُّ على شفتَيْهِ من الغَيْظ .. وهي موجودةٌ في الأجنحة العليا . »

٢٣. الساحر يحاول إغراء كالينوس

من بابِ الحديقة ، الذي تركهُ العبد « سوزي » مُنْفَرِجاً ليدخلَ منه الشيطانُ ، دخل كالينوس ، كاهنُ ايزيس .

كان كالينوس يحدّثُ نفسَهُ وهو ماضٍ لمقابلة اربابسيس :

« إنني أسير فوقَ حفرةٍ عميقة .. ولكنّ هذه الحفرة قد تتكشّفُ عن مَنجمِ ذهب .. إن حياة أرباسيس بين يديّ .. فماذا يمكن أن يُعْطيَني بالمقابل ؟ »

ووَجَدَ نفسَهُ فجأة أمام أرباسيس .. قال هذا بشيء من الضيق :

« أأنتَ آتٍ إليّ في أمرٍ هامّ ؟ »

— « نعم ، أيها الحكيم أرباسيس ! أيمكن أن نجلسَ في حُجْرتك ؟ »

— « الليلُ هادىءٌ جميلٌ .. في الحديقةِ سنكونُ وحدَنا أيضاً ! »

وتَوَجَّهَ الاثنانِ إلى رُكْنٍ من الأركانِ المَرْصوفةِ التي أُحيطَتْ بالزَّهريات الرخامية . قال ارباسيس :

« يا لَهَا من ليلة رائعة ! إنها شبيهةٌ بأوّل ليلة وصلتُ فيها إلى السواحلِ الأيطالية ، منذ عشرينَ سنةً !.. الأيامُ تمضي بنا ، يا كالينوس ! لِنَذْكُرْ ، على الأقل ، أننا عشنا حقاً . »

— « تستطيعُ أن تهنىء نفسكَ من هذه الناحية !.. فأنتَ تملكُ ثروةً هائلةً ، وصحّةً حديدية .. ولديك كلُّ ما تشتهي من أسباب الحبّ وألوان المَلَذّات .. والآن تَشْفي نفسك بالانتقام ! »

— « أتلمحُ إلى الأثينيّ ! أنتَ مخطىء .. إنني لا أحملُ أيّ حِقْدٍ لهذا القاتل المسكين ! »

— « قاتِلْ ! »

كرّرَ كالينوس هذه الكلمة وهو ينظرُ إلى ارباسيس نظرةً ذاتَ معنى ؛ ثم استطردَ يقول :

« تستطيعُ أن توجّهَ إليه التهمَةَ كما تشاء.. ولكنّكَ أولُ من يعرفُ أنهُ بريء ! »

أرباسيس بجفاء : « ماذا تريدُ أن تقول ؟ أفْصِحْ ! »

— « ارباسيس، كنتُ مختبئاً في الغابة ليلةَ الحادث.. رأيتُ وسمعتُ كلَّ شيء ! »

قال ارباسيس دون اضطراب :

« كنتُ أشعر بذلك !.. هل كنت وحيداً ؟ »

كالينوس ، دهشاً من سكون أرباسيس : « نعم ! »

— « ولمَ كنت مختبئاً ؟ »

— « لأنني علمتُ أن أبيسيدس قد اعتَنَقَ المسيحية ، وأنه سيلتقي أولنتوس ليتفقا على كَشْفِ أسرارِنا أمام الشعب.. فكنت أريد أن أطّلع على خِطَطِهِما من أجل إحباطها ! »

— « هل تحدّثْتَ بذلكَ إلى أحد ؟ »

— « كلا ، أيها السيد ! لقد ظلّ هذا السرُّ في صدري ! »

— « وبوربو ؟.. أما عرَفَ بالأمر ؟ »

— « كلا ، وحقّ الآلهة ! »

— « لا تُدْخِلِ الآلهةَ في الأمر .. نحن نعرفُ بعضَنا ! ولماذا كتمتَ هذا السرَّ حتى عشيّةِ الحكمِ على الأثينيّ ؟ »

فأجاب كالينوس ، مضطرباً : « لأنني ... لأنني ... »

فقال ارباسيس وهو يضرِبُ على ذراع كالينوس بمودّة :

— « لأنكَ أردتَ أن أتورّطَ إلى الحد الذي لا أستطيعُ معه التراجع .. وجئتَ قبلَ البتِّ نهائياً في القضية ، لتفهمني أن كلمةً واحدةً منكَ تقلبُ الأمورَ رأساً على عقبٍ ، فتقدِّمني إلى أنيابِ الأسدِ بدل غلوكوس ، وبذلك تَضْطَرُّني إلى دَفْعِ ما تريد .. أليس هذا صحيحاً ؟ »

— « الحقُّ أنكَ تقرأ في القلوب ، يا أرباسيس ، كما تقرأ في كتابٍ مفتوحٍ ! »

— « هذه هي مَوْهِبتي ! .. إحفَظِ السِّرَّ حتى ينتهيَ كلُّ شيء وسأُغْنيكَ ! »

— « عفواً ، يا سيدي ! قُلْتَ الآنَ إنَّ كلاًّ منا يعرفُ الآخرَ .. وهذا صحيح ! »

— « ألا تستطيع أن تَنْتَظِرَ حتى الغد ؟ »

— « ولمَ هذا التأخير ؟ إنه لا يبدو لي كعلامةٍ طيِّبة بالنسبة إلى المستقبل ! »

— « حسناً ! بكم تبيع سكوتَكَ ؟ »

— « إنَّ حياتَكَ ، أيُّها السيِّد ، ثمينةٌ جداً ، وثراءَك بالغُ الاتساع ! »

— « كنْ دقيقاً ، وحدِّدْ ما تَطْلُب ! »

— « يقالُ إنَّ تحت سقفِ قصرِكَ الفخم كنزاً خفيّاً ينافسُ كنوزَ نيْرون ؛ وفي استطاعتكَ أن تجعلَني كاهناً سعيداً

في بومبيي دونَ أن تشعُرَ بنقصٍ في هذه الأكوام ! »

— « تعالَ ، يا كالينوس ! أنتَ صديقٌ قديمٌ ، وخادمٌ مخلصٌ أمين .. سأمتّع نظرَكَ بمرأى الذهب والتُحَف ، وفي استطاعتك أن تحمِلَ ما تستطيعُ هذه الليلةَ .. وبعد إعدام غلوكوس سأعودُ بكَ إلى الكنز .. هل أنت راضٍ ؟ »

— « أنت أعظمُ رجلٍ وأكرمُ رجل ! »

٢٤. فرار نيديا ..

كانت نيديا تنتظرُ بفارغ صبرٍ قدومَ العبد « سوزي » ، الذي كان أيضاً يستعجل ساعة اللقاء . وقد حصَّنَ نفسَهُ ضدَّ الخوف بجرَعاتٍ كبيرةٍ من الخمرة ، قبلَ أن يذهَبَ اليهـا .

نيديا : « هل جئتَ بوعاء الماء ؟ »

سوزي : « نعم .. ولكنني ارتعش قليلاً .. أأنتِ واثقةٌ أنني لن أرى الشيطان ؟.. لأنه يقال إن هذه المخلوقات لا هي جميلةٌ ولا مهذبة ! »

— « لا تَخَفْ !.. هل تركْتَ بابَ الحديقةِ مفتوحاً ؟ »

— « نعم ! »

— «الآنَ دَعْ بابَ الحجرةِ مُنْفَرِجاً وأعْطِني المصباح ! »

– « ماذا ؟ اتريدينَ إطفاءَهُ ؟ »

– « كلاّ ، بل أريدُ أن أقرأَ فوقَهُ سحري، لأنّ في النار أرواحاً .. إجلِسِ الآن . »

فأطاعَ العبدُ . وراحَتْ نيديا تَدْعو روحَ الهواء بعد أن انحنَتْ لَحظاتٍ فوقَ المصباح . وقال سوزي بشيءٍ من الاضطراب :

– « إن شبحَ الهواء لن يلبثَ أن يأتي ! .. إنني أشعرُ بأنفاسِهِ في شعري ! »

نيديا : « ضَعِ الماءَ على الأرض، وأعْطِني مِنديلاً لأربُطَ رأسك ! »

سوزي : « لا تَشُدّي كثيراً ! أرجوكِ ! »

– « هل ترى شيئاً ؟ »

– « لا أرى غيرَ السواد ! »

– « الآنَ قُلْ كلَّ ما تريدُ بصوتٍ منخفضٍ ، ثم انتظِرْ، فإذا استُجيبَ طلبُكَ سمعْتَ الماءَ يفورُ ، وإلا فالماءُ يظلُّ ساكناً ! »

بعد أن تعبَ سوزي من تكرارِ سؤاله روحَ الهواء عن موعد تحريره ، ولم يسمعْ فَوَرانَ الماء ، فكَّ الرباطَ عن عينَيْهِ وهو يَلْعَنُ ويشتمُ ، فرأى نفسَهُ سجيناً في الحُجْرة المظلمةِ ، التي لا يمكن أن يسمعَ استغاثتَهُ فيها أحدٌ .

مشت نيديا ، التي كانت تعرِفُ مخارجَ البيت ، في ممر يؤدي إلى الحديقة . ولما وصلَتْ ، طَرَقَ أذُنَها وَقْعُ خطى . وتذكَّرَتْ أن هناك طريقاً أخرى تؤدّي إلى الحديقةِ فعادَتْ من حَيْثُ أتت ، وهَبَطَتْ عدّةَ دَرَجاتٍ ووصلَتْ إلى مَدْخَلِ الممرِّ ولكنَّها رأتِ البابَ مُقْفَلاً . وبينما كانت تحاوِلُ فَتْحَهُ اقترَبَ منها الشَّخْصانِ اللّذانِ كانا يتحادثَانِ ، واللّذانِ عَرَفَتْ فيهما ارباسيس وكالينوس . إنهما يَهْبِطانِ ، فلا بُدَّ لَها مِنَ الابتعاد .. وعلى هذا الأساسِ وَجَدَتْ نَفْسَها في منطقةٍ لا تَعْرِفُها . ودَلَّتْها الرطوبة والبُرودة على أنها في أقْبِيَةِ القصر ، فاطمأنَّتْ لأنَّ السيِّدَ لا ينزِلُ في العادة إلى هناك . ولكنَّ الخُطى ظلتْ تَقْتَرِب ؛ فراحَتْ تسيرُ ويداها ممدودتان حتى وصلت إلى جدارٍ أملسَ . أين تختبِىء ، والأصواتُ تتقدم وتتقدم ؟ سارَتْ مع الجدار ، فاصطدمَتْ بدعامةٍ مُقَنْطَرَة ، فوقعَتْ على الأرض . ورغمَ الصدمةِ فقد شكرتِ الظروفَ لأنها هيأت لها مكاناً للاختباء . وتجمَّعَتْ خَلْفَ الدعامةِ ولبثَتْ تنتظر مصيرَها .

كان أرباسيس والكاهنُ يَتجِهانِ نَحْوَ تِلْكَ الحُجْرَةِ التي قالَ أرباسيس إنَّ كنوزَهُ فيها . وصلا إلى قاعةٍ متسعةٍ تحت الأرضِ تنهَضُ فيها أعمدةٌ غليظةٌ قليلةُ الارتفاع .

الجدرانُ عاريةٌ كالأرض ، وقد استفاقتْ بعضُ الأفاعي خائفةً ومَضَتْ تختفي في الشُّقوق . قال أرباسيس لرفيقِهِ عندما لاحَظَ أنه يرتعش :

« ما بكَ ؟ إن هذهِ الأقبيةَ الحقيرةَ هي التي تَهَبُ الغنى للصالاتِ العُليا المملوءةِ بالتحفِ والرِّياش .. إنها أشْبَهُ بالفلاَّحينَ الذين يُغذُّونَنا ونَحتقِرُهُمْ . »

— « وإلى أينَ يقودُ هذا الدِّهليز .. يَبْدو وكأنه يؤدي إلى الجحيم ! »

— « كلا ، بل إلى الضياء! أما نحن فطريقنا إلى اليمين.. ها نحن أمام الباب ! »

وراح ارباسيس يدير مفتاحاً غليظاً في القفل الصدىء فيُحْدثُ صريراً رهيباً . قال :

« أدخُلْ ، يا عزيزي، لأرفعَ أنا لكَ المصباحَ حتى ترى سبائكَ الذهبِ جيداً . »

وما إنْ تخطّى العَتَبَةَ حتى كانَتْ يدُ أرباسيس القويةُ تدفعهُ بعُنْفٍ ثمّ تُغْلِقُ البابَ المتينَ المصفّحَ بالحديدِ . قال أرباسيس وهُوَ يُرْسِلُ قَهْقَهَةً رنّانَةً :

« لن يُتاح لك بعدَ الآن أن تقولَ الكلمةَ التي تُخْفيها! »

كانَ وُقوعُ كالينوس من عِدّةِ دَرَجات مؤلماً إلى حدٍّ بعيد ؛ ومع ذلكَ فقدْ نهَضَ المسكينُ وجرى نحوَ الباب .

وراحَ يدقهُ بقبضَتَيْهِ ، ويصيحُ كوحشٍ وُضِعَ في قفص :

« أطلِقْني ، يا أرباسيس ، واحتفِظْ بذهبك ! »

ولكنَّ الصياحَ لم يتجاوزْ إلا قليلاً ذلك البابَ الكثيف .

وعاد ارباسيس يُقَهْقِهُ ويقول :

« إنَّ ذَهَبَ « دلماسيا » كلَّهُ لَنْ يَمْنَحكَ كِسْرَةَ خبز ! مُتْ جوعاً أيها الشقيّ .. حتى الهواءُ لن يكشفَ أبداً عن الرجلِ الذي هدّدَ أرباسيس وكان في استطاعتِهِ أن يُضيِّعَهُ ! وَداعاً ! »

ومضى عنه دونما تأثرٍ بتوسلاته .

كانت نيديا تستمعُ إلى كل شيء : إذن فالذي يَسْتطيعُ أن ينقذَ غلوكوس لا يزالُ يتنفّسُ غيرَ بعيدٍ منها. إنها الآن تعرفُ مكانه . فإذا تسنّى لها أن تَذْهَبَ إلى الحاكم أمكنَها إنقاذُ غلوكوس قبل فَواتِ الفرصة ..

وما إنِ ابتعَدَ ارباسيس حتى مَضَتْ نحوَ بابِ القبوِ الذي سُجِنَ فيه الكاهن . ووَضَعَتْ فَمَها على ثُقْبِ الباب وراحت تدعو الكاهنَ ، الذي ما إنْ سمعَ هذا الصوتَ الناعمَ حتى وقف شعرُ رأسِهِ من الخوف . وصاح :

« مَنْ هذا ؟ أيُّ شبح ينادي كالينوس المسكين ! »

— « أنا، أيها الكاهن! لقد شهدْتُ خيانة ارباسيس دون أن يَشْعر بي .. فاذا استطعتُ أن أنجو منه فسأخلّصك ..

ولكنْ أجبْ عن أسئلتي أولاً ! »

— « أيتها الروحُ الهابطةُ من السماء، أنقذيني وسأبيعُ أوعيةَ المعبد لردِّ جميلك ! »

— « إنني لا أريدُ ذهباً .. كلُّ ما أريدُهُ هو السرُّ الذي تخفيه : أفي استطاعتِكَ حقاً أن تبرِّىء الأثينيَّ غلوكوس من التهمة التي نُسِبَتْ إليه ؟ »

— « نعم.. ولهذا السبب بالذات سَجَنني أرباسيس.. لأموتَ جوعاً ! لقد رأيتُ بعينيَّ ارباسيس يقتلُ أبيسيدس ! »

— « وستقدِّمَ جميعَ التفاصيل والشواهد ! »

—« طبعاً ! أريدُ أن انتقمَ من هذا الخائن ! أريد أن انتقم.. أنتقم ! »

واطمأنت نيديا إلى أن كالينوس صادقٌ في وعده لِما كان يملأ صدرَهُ من النّقمة على أرباسيس . وقالت :

« إنَّ الآلهة التي قادَتْني إلى هنا ستَأخذُ بيدي لأخلّصَك.. انتظِرْ بصبرٍ ولا تَفْقِدْ شجاعتَكَ .. وَداعاً ! »

ولما وَصَلَتْ إلى الدّهليز الذي يقودُ إلى الحديقة توقّفَتْ ، ورأت أنَّهُ من الأسلم أن تنتظرَ حتى ينامَ جميعُ مَنْ في الدارِ ، لتخرجَ دون أن يتنبهَ إليها أحدٌ . ولهذا اضطجعَتْ على الأرض وهيَ فرِحَةٌ بأنّها ستنقِذُ غلوكوس .

٢٥ . توسلات إيون ...

تَرَكَ أرباسيس سجينَهُ ، وصَعَدَ ليتناولَ بضعَ كؤوسٍ بمناسبة هذا الانتصارِ الجديد . لقد شَعَرَ بالفرح يَمْلأُ قلبه . ولكنه أخذ يفكرُ كيف يمكنُ له تبريرُ اختفاء الكاهن كالينوس أمام رفاقه الآخرين من كهنة ايزيس ؟ قال في نفسه إنه بعد أن يموت كالينوس سيرميه في النهر ، فإن اكتشفَتِ الجثةُ فلا بدَّ أن تلقى التهمةُ على النصارى ، الذين من الطبيعيّ أن يثأروا لرفيقهم أولنتوس . ولما اطمأنَّ إلى النتائج على هذا النحو ، قرر أن يزورَ إيون .

كان يرتدي الملابسَ السوداء ايهاماً لإيون بأنه يشاركِها في حدادها . ولكنّه عطّر شعرَهُ وأصلحَ هندامَهُ ، ومضى إليها . وجدَها تجلسُ ساهمةَ الطَّرْفِ وشعرُها مُنْسدِلٌ على وَجْهِها وعُنُقِها ، وقد أطفأ الهمُّ نضارةَ خدَّيْها . فلما أبصرَتْهُ أشاحَتْ بوجهها دونَ أن تتحرَّكَ . قال وهو يجلسُ باحترامٍ على مسافةٍ منها قُربَ المنضدة :

« ليتَ حُبي يستطيعُ أن يَطْرُدَ من قلبكِ الحِقْدَ عليَّ ، إذَنْ لمتُّ وأنا في مُنْتَهى السعادة ! إنكِ تحكمين عليَّ ، يا إيون ، حكماً جائراً . لوميني ، عنِّفيني فإنَّ أشدَّ الكلمات التي تخرُجُ من فمكِ أجملُ في أذني من ألحانِ العود ! أما

هذا الصمتُ فإنه يوحي إليَّ بأنَّ العالم قد تجمَّد ، والحياةَ قد توقفت ! »

إيون : « أعِدْ إليَّ أخي وخطيبي ! »

– « ليتَ الآلهة تُعيدُ إليكِ الأوَّلَ وتنقذُ الثاني ! إنني مستعد لأن أضحيِّ بحبي القاتل وأضعَ يدَكِ في يد الاثينيِّ لقاءَ أن أراكِ سعيدةً . إذا خرجَ مُبرَّأً فلكِ أنتِ أن تبرِّئيه أو تُدينيه ، ولن ألحَّ عليكِ بأن تحبيني بعدَ ذلك .. إصفحي عني لتلك الزَّلَّةِ التي نَدِمْتُ عليها أيَّما ندم .. دعيني أعود ، كما كنتُ بالنسبة إليكِ ، أباً وحامياً وصديقاً ! »

– « إنني أعفو عنك ؛ ولكنْ أنقِذْ غلوكوس .. أنقِذْهُ وأنا مستعدةٌ أن أبتعد عنه ! »

وهنا تحوَّل صَوْتُها إلى استعطاف ، فركعت عند قدَمَيْهِ وراحتْ ترسلُ الدموعَ وتقول :

« إن كنتَ تحبُّني حقاً فأنقِذْ غلوكوس ! »

– « أنتِ تعلمين أن القوانينَ الرومانية صارمة .. ومع هذا فهل تقبلين بأن تكوني زوجةً لي إن تمكنتُ من إطلاق سراحِهِ ؟ »

فنهضَتْ في الحال وصاحَتْ متسائلة :

– « زوجتكَ أنت ؟ ودمُ أخي ، الذي لم يُثأرْ له ؟ مَنِ الذي قتله ! زوجتك ؟ .. لا .. أبداً ! »

– « ما هذا الكلامُ ، يا إيون ؟ لمَ تقرنين اسمي بمقتلِ

أخيك ؟ »

– « لأنَّ أحلامي قرنَتْ بينهما .. والأحلامُ تأتي من الآلهة ! »

– « ألمجرَّدِ حلُمٍ تقضينَ على الفرصةِ الوحيدةِ لإنقاذِ غلوكوس ؟! »

– « إسمعْ : إن أنقذْتَ غلوكوس فإنني أقسِمُ على ألاَّ أدخل منزلَهُ كزوجة . كذلك لا أستطيعُ أن أتزوَّجَكَ ! وفي اليوم الذي يختفي فيه غلوكوس من الوجودِ لن أتركَ لكَ مني سوى الرماد .. لن أعيشَ من بعده يوماً واحداً .. هذا ما أقوله ! »

– « كفى .. كفى ! إنني سأفعلُ ما أستطيعُهُ .. وبوسْعِكِ أن تسألي أعدائي ، فيما بعدُ ، إن كنتُ قد دافعْتُ عن غلوكوس بإخلاصٍ أم لا .. ولكنْ إذا لم أتمكَّنْ من إنقاذه فليس لكِ أن تلوميني .. إستريحي .. لتكن أحلامُكِ أقل قسوةً عليَّ ! »

وخرجَ مسرعاً كأنه يهرب من توسُّلاتها التي تُثير فيه العطفَ كما تُثير الغَيْرة . أما من ناحية العطفِ ، فالحقيقةُ أنه لم يَعُدْ في إمكانه أن يَصْنَعَ شيئاً لغلوكوس بعد أن شَهِدَ عليه وأثارَ ضدَّه الجمهورَ .

وبينما كان العبيدُ يخلَعُون عَنْهُ ملابسه ، تذكَّر نيديا ،

وذكَرَ أنّهُ من الضّروريّ ألا تتّصِلَ بإيون ؛ فأرسَلَ مولاه[1] « كالياس » إلى سوزي ليوصيه بأن يفتح عينيه .

فلما ذهبَ كالياس وَجدَ سوزي حيث تركَتْهُ نيديا ، فأخبره بما جرى لَهُ وقال له إن نيديا لا بُدّ أن تكون قد خرجت من باب الحديقةِ الذي تركَهُ مفتوحاً . فأكّد كالياس بأنه أقفل البابَ بيده بعدَ دخول كالينوس مباشرةً ، فـلا يُمكن أن تكون نيديا قد غادرت المنزل .

وهكذا خرجَ الرجلان يُفتّشان عن الفتاة العميـاء . واستطاعا أن يجداها عند البابِ الذي كانت تعالج فتْحَهُ ولا تستطيع ؛ وعادا بها إلى غرفة السجن .

٢٦ . غلوكوس في السجن

بعد أن صدر الحكم على غلوكوس . لم يَعُدْ أمرُهُ موكولاً إلى سالوست . الذي كان صديقَهُ الوحيدَ في محنته . بل سارَ به الجنودُ عبرَ ساحة العدل . وأوْدَعُوهُ زَنزانةً يواجهُ بابُها مَعْبَدُ جوبيتير . ووضعوا أمامه قطعةَ خبز وجرّةَ ماء وتركوه وحيداً في الظلام . وكان وعيُهُ قد عاد

---

(١) المولى هو العبد الذي أعتق .

إليه تماماً ، فتولّتْهُ حالةٌ من الهبوط كانت تَهُدُّ أعصابه . في أثناء المحاكمة حافظَ على هدوئه ، بفضلِ جرأته الطبيعية وعزته الإغريقية ، مما جلبَ له التقدير العام . وفي الزنزانة شعَرَ بالبرودة والرطوبة تجمّدان أطرافه .. إنّهُ لم يتعوّدْ قَطُّ ذلك .. لقد عاش في العز والرفاهية .. ولكم صَفّقَ له نفسُ أولئك الذين أرهقوه ، خلالَ المحاكمة، بالتنديد والصفير . ولقد بدت له وجوهُ أصدقائه ، الذين طالما أكلوا وشربوا على مائدته ، بَدَتْ له جامدةً لا أثرَ فيها لعاطفة . لا أحدَ يُواسي ذلكَ الغريبَ الذي كان محلّ إعجابهم في الماضي يوم كان في أوج عزه . وإيون ؟ اين إيون ؟ لا كلمةَ ولا رسالةَ ولا إشارة ! هل نسيَتْهُ هي الأخرى ؟ هـل اعتقدت بأنه هو الذي قَتَلَ أخاها بالفعل؟ وراحَ يئنُّ ويتوجّعُ بصوتٍ مرتفعٍ في الزّنزانة ، التي رُمي فيها .

وفي تلك الظلمةِ الدامسةِ ارتفع صوتٌ آخر متجاوباً مع شكواه :

« مَن الذي معي في هذه الساعات الرهيبة ؟ أنت ، أيها الأثينيّ غلوكوس ؟ »

— « ما اسمُكَ ، أيها الغريب ؟ »

— « أنا اولنتوس المسيحيّ ، رفيقُكَ في نفس القضية ! »

— « قل لي : أتعتقدُ أني أنا الذي قتلت أبيسيدس ؟ »

– «إنَّ اللهَ وحدَهُ هو العالمُ بالأسرار .. ولكنَّ شكوكي لا تتجه إليكَ بل إلى مَنْ وَجَّهَ إليك الاتهام !»

– «إنك تريحني فعلاً ! وما الذي يجعلُكَ تفكِّرُ هكذا ؟»

– «لأنني أعرِفُ قلبَ هذا الرجل الشرِّير ؛ كما أعلمُ أن لَدَيْهِ أسباباً تدفعُهُ إلى الخوف من الرجل الذي قُتل .»

وراح أولنتوس يَرْوي له كيف أن ابيسيدس دخل في الدِّين الجديد ، وكان يستعدّ لفضح ارباسيس أمام الملأ .

وطلب غلوكوس من رفيقِ سجنِهِ أن يشرَحَ له تعاليمَ دينه ، في تلك الساعات الحزينة .

٢٧. الحكم على غلوكوس بالموت

كان الوقتُ يَمُر على نيديا ، في مَحْبسها ، وهي في أتعسِ حال . كانت تعرفُ أنَّ كلَّ ساعةٍ تَمُر إنما تُقَرِّبُ غلوكوس من الموت . ولما لم تستطِعْ صبراً ، قامت إلى الباب تَدُق عليه وتصيح . وأقبل سُوْزي يريدُ أنْ يُسكتها . فتوسلَتْ إليه أن يَظَلّ مَعَها ، لأنَّ الوَحْدَةَ تقتلها . والواقعُ أنه هو نفسهُ كانَ متضايقاً من هذهِ الوَحْدة ؛ فراح يتحدَّث إليها . وفي أثناء الحديثِ علمَتْ بالحكم الذي صدَرَ

على المتَهَمَين ، والذي يَقْضي بتقديمهما إلى الأسد والنَّمِر خلال المهرجانات التي ستبدأ في اليوم التالي . وقال سوزي :

«لولاكِ كان في وُسْعي أن أذهبَ غداً إلى المُدَرَّج لمشاهدة هذه المصارعة الفريدة !»

وبينما كان العبدُ الساذَج يتحدَّثُ اليها على هذا النحو كانت هي مُشْرِفةٌ على الإغماء . قالت :

«إسمَعْ ، يا سوزي ! إنه لم يَبْقَ أمامَكَ لتكْمِلَ المبلغَ الذي تسترد به حريَّتكَ سوى ألفي سسترس .. أترى إلى هذه الأساور وهذه السلسلة ؟ أنا مستعدةٌ لاعطائك إياها إذا تركتَني أخرُجُ لمدة ساعةٍ واحدة عند منتصفِ هذه الليلة .. سأكونُ عندكَ هنا قبل الفجر .. بل في إمكانكَ مرافقتي !»

– «لا تغْرِيني ، فليسَ في استطاعتي أن أخلي سبيلَكِ ، لأن أرباسيس سيِّدٌ رهيب !»

– «وهل تَرْفُضُ أن تحمِلَ خطاباً لقاء هذه الحليّ ؟ إن سيِّدَكَ لن يَقْتُلَكَ من أجلِ ذلك !»

– «إلى من ؟»

– «إلى سالوست ! إن غلوكوس اشتراني من سيِّدٍ بالغ القسوة .. وفي هذه الساعة التي يستعد فيها للموت أريد أن أعبِّر له عن عاطفتي وامتناني .. وسالوست هو صديقهُ ، ولا بُدَّ أن يُسلِمَهُ الرسالةَ .. أما تريدُ أن تكون حراً ؟..

لم يَحْدُثْ قَط أن اشتُرِيَتْ حُرِّيَّةٌ بمثل هذا الرُّخص ! »

وهنا أخذ سوزي يفكِّرُ في هذا العَرْض المغري ؛ وأخيراً قال :

– «هاتي الحليّ ، وسأحمل إليكِ عدداً من وَرَق البَرْدِيّ !»

– « بل أعطني لوحاً من الشمع وقلماً ! »

ولما أتاها باللوح نَقَشَتْ عليه بعضَ كلماتٍ باللغة اليونانية التي كان من المفروض أن يعرفها كل مثقف إيطالي . ثم ربطتِ اللوحةَ بالرباط الواقي ، ووضعت شمعاً على العُقدة ، وسلَّمَتِ الخطاب إلى سوزي بعد أن جعلتْهُ يُقْسِمُ على أن يعطيَهُ إلى سالوست يداً بيد .

ومضى سوزي بعد أن أحكم إغلاق الباب عليها . ولما وصل إلى منزل سالوست ، وضعَ عدة سسترسات في أيدي العبيدِ ليقودوه إلى سيِّدهم .

كان سالوست متأثراً إلى أقصى حدٍّ بسبب ما حدث لصديقه غلوكوس ، فراح يُغْرِقُ همه في كؤوس الخمرة . وقد وَصَلَ سوزي بَعْدَ أن تناولَ سالوست كميةً وافرة من الخمر ؛ وكان الأسى بادياً على وجهه . قال سوزي عندما وقفَ أمامَهُ :

« إنَّ فتاةً كلَّفَتْني أن أحملَ هذه الرسالةَ إلى سالوست ! »

سالوست : « يالَلآلهة ! أما ترى في أيِّ حالةٍ أنا ؟ إذهَبْ

من أمامي ، ولترافِقْكَ اللعنةُ ! »

وقال لسالوست مولاه ، بعد أن خرج سوزي :

« أما تقرأ هذا الخطاب ؟ »

– « خطاب ؟.. أيّ خطاب ؟ كيف أستطيعُ أن أقرأ خطاباً وصديقي سوف يُفْتَرَسُ بعدَ ساعات ! كلا ! كلا ! إنني أشعرُ بالاختناق ! »

وما لبث أن تدلَّى رأسُهُ على صدره، فحملوه إلى سريره .

أما سوزي فقد حثَّ الخطى إلى المنزلِ قبل أن يتنبَّهَ إلى غيابِهِ أحد . وفيما هو سائرٌ وَجَدَ نفسَهُ في وَسَطِ مجموعة من الناس جرفَتْهُ في طريقها . فلما سأل عن الخبر قيل له إن الشريف بانسا سَمَحَ للجمهور أن يُشاهدَ الأسدَ والنَّمِرَ اللذينِ سيكونان بطلَيْ المهرجاناتِ في اليوم التالي . قالَ العبدُ ، في نفسِهِ : إنَّ مشهداً كهذا لا يجب أن يُفَوَّت ، خاصةً وأنني لن أتمكَّنَ غداً من مشاهدة الاحتفالات ؛ فليس في مقدور المرءِ أن يرى أسداً ونمراً كلَّ يَوْمٍ في بومبي .

وهكذا ذَهَبَ مع الذاهبين إلى حيثُ وُضِعَ الوحشان الضاريانِ في قفصَيْن متجاورَيْن . وكان الازدحامُ يزدادُ لحظةً بَعْدَ أخرى . ولكنْ من أجلِ سلامةِ الجمهورِ كان المشرفونَ لا يمكِّنونَ من الدخولِ سوى عددٍ ضئيل ، فإذا خرجَ المتفرجون أُدْخِلَ غيرُهم .

واستطاع سوزي أن يستمتعَ برؤية الحيوانَيْن الهائلين . كان الأسدُ ، الذي برّح به الجوعُ ، يَرُوحُ ويجيء في قفصِه قلِقاً ، وينظرُ إلى الناسِ بصورة مُفْزِعة ، فيتراجعونَ خائفين لاهثين . أما النَّمِر فكان متمدّداً على جانبه وهو يلوّحُ بذيلِه متضايقاً من القفص ومن مرْأى الجمهور . وبَعْدَ أن أرضى سوزي فضولَهُ عاد إلى المنزل .

٢٨. طلائع الكارثة ...

مرتِ الليلةُ التي سبقتِ المهرجانَ بهدوء ، وبدأت تظهر خيوطُ الفجر لآخرِ يومٍ من أيام بومبي . كان الهواءُ هادئاً وثقيلاً . وكان ضَبابٌ كثيفٌ يلف منطقةَ كمبانيا (في جنوب ايطاليا) . ولكن بالرغم من هذا الهدوء في الجوّ ، كان البحرُ مضطرِباً ، كما كان يبدو أنه يبتعدُ عن الساحل . وكان نهرُ سارنوس يجري بجلالٍ ويتصاعدُ منه صوتٌ كئيبٌ . وقد انخفضَ الضبابُ جداً حتى صارت تُرَى فوقَهُ أبراجُ المدينة ، وسطوحُ المنازلِ ، وأعمدةُ الهياكل ، وأقواسُ النصر .

فتحت أبوابُ المدينة ، ذلكَ اليومَ ، في ساعة مبكرة جداً . وكانت تتقاطر على المدينة أفواجٌ متلاحقةٌ من الضواحي . كان البعض يركبون الخيولَ أو العرباتِ والبعضُ الآخرُ يسيرون

على الأقدام ، والكل في ملابس العيد . وكان الجميعُ يَتخفّونَ نحوَ مدرّجِ المدينة ، لأن أنباء محاكمةَ المتهمينَ البارزينَ قد زادتَ فضولَ الناس بشكلٍ مُذهل .

في ذلكَ الوقتِ كانت امرأةٌ غريبةُ الشَّكْل ، بملابسها القديمةِ العجيبةِ ، تسيرُ في اتجاهِ منزلِ أرباسيس . كان الناسُ يبتسمون لمرأى شَكْلِها وطريقةِ سَيْرها ، فإذا رَفَعَتْ إليهمْ نظرَها اختفى الابتسامُ عن شفاهِهِم وأسرَعوا في الابتعــاد . حتى العبدُ الزنجي الواقفُ على باب أرباسيس ارتعَدَتْ أوصالُهُ عندما اقبلَتْ عليه .

وكان أرباسيس قد رأى أحلاماً مزعجةً في أواخرِ الليل ؛ وعندما أفاقَ كان جبينُهُ مكلّلاً بالعَرَق ، وعيناهُ زائغتَيْن وأوصالُهُ مضطربةٌ . وعندما فتح عينيه على أشعةِ الصباحِ فرِحَ لأنَّ ما رآه لم يكنْ سوى حلم . ولكنّه ما إنْ حوّلَ نظره حتى طالعَهُ الوجهُ الموميائيّ لساحرةِ الفيزوف . وصاح قائلاً :

« أما زلتُ أحلم ؟ »

— « كلا ، يا هرميس العظيم ؟ إنَّ أمامَكَ صديقتَكَ وأمَتَكَ ! »

— « ما الذي جاء بكِ يا امرأة ؟ »

— « لقد جئتُ لتحذيرِك ! »

– « من أيِّ خطر ؟ »

– « إسمعْ : إنَّ هناكَ خطَراً شديداً يهدِّدُ المدينةَ ؛ فاهرب منها ما دامتِ الفرصةُ سانحةً . في مغارتي شق يجري منه ، منذ مـدة قصيرة ، وببطء ، جدْولٌ أحمرُ قاتم . وأسمَعُ هديراً وصفيراً في أغلب الاحيان . كان الجدولُ في الليلةِ الماضيةِ متوهجاً .. وقد رأيتُ ثعلبي يرتعشُ ويئن ثم يسقط ميْتاً والزَّبدُ يغطي خطْمَهُ (فمَهُ وأنفَهُ) . وطَوالَ الليلِ كانَ يُسْمَعُ انشقاقِ الصخورِ وتحطُّمها . ورغم أنَّ الريحَ كانت ساكنةً فقد كنتُ أسمَعُ صفيرَها ممزجاً بصوتٍ في باطنِ الأرض أشبهَ بصوتِ عجلاتٍ دائرةٍ . وفي الصباحِ رأيتُ حجارةً سوداء على وَجْهِ الجدول الذي ازدادَ اتساعاً واحمراراً وتوهُّجاً عمَّا كان أثناءَ الليل . وخرجتُ من مغارتي فرأيتُ شقاً واسعاً يتصاعدُ منه دُخانٌ خفيف .. هذا الدُّخَان قتّال ، لأنني أوشكتُ أن أموتَ بعد أن تنشَّقْتُهُ ، وفي الحالِ عُدْتُ ، فحملْتُ ذهبي وعقاقيري وغادَرْتُ نهائياً هذا المكانَ الذي عشْتُ فيه سنينَ طويلةً ؛ ذلك أنني تذكَّرتُ النبوءةَ الأتروكيّةَ التي تقول : « عندما يَنْشَقّ الجبلُ تزولُ المدينة .. وعندمـا يتوجُ الدُّخَانُ قممَ الحقولِ المحروقة يَعرِفُ أبناءُ البحرِ المصائبَ والدموع ! » أيهـا السيد الأعلى ! ها أنا قـد

أتيتُ إليك ، قبل أن ألجأ إلى مكانٍ بعيد ، لأحذِّرَك . إنني متأكدةٌ أن الهزّةَ التي حدَثَتْ منذ ستّين عاماً لم تكن سوى المقدمة لكارثةٍ أشدَّ وأدهى . إن جدران بومبيي تنهضُ فوق مملكة الموت ، وعلى أطرافِ الجحيم . ها أنت قد عرَفْتَ كلَّ شيء ، فانجُ بنفسك ! »

– « أيَّتُها الساحرةُ ، إنني أشكرُكِ على اهتمامِكِ بي .. خذي هذه الكأسَ الذهبيةَ ، فهي لك . إن الأمارات التي رأيتها للبركانِ الساكنِ تدل على خطرٍ يُهَدِّدُ المدينةَ . وقد تَحْدُثُ هزّةٌ أرضيّةٌ أعنفُ من الأولى .. إنَّ هذا سبَبٌ آخر يدعوني إلى مغادرة المدينة .. سأرحلُ غداً ! وأنتِ إلى أينَ تتوجهين ؟ »

– « إلى « هركولانوم » ، حيث سأقيمُ على الشاطىء . لقد وَعدْتَني ، يا هرمس العظيم ، بعشرينَ عاماً تُضافُ إلى عمري ! »

– « أجل .. وَعدْتُكِ بذلك !.. ولكنْ أيَّ لذّةٍ تجدين في الحياة ؟ »

– « الحياة ليستْ لذيذةً ، ولكن الموتَ رهيبٌ ! »

ومضتِ الساحرةُ ، وقام هو ليرتدي الملابسَ التي تليقُ بالعيد ، كما كانت تقضي التقاليد . وقد لَبِسَ ثوباً ناصعَ البياض أزرارُهُ من الحِجارة الكريمةِ ، وألقى فوقه عباءةً

شرقيةٌ من النسيج الارجواني الذي تَصْنَعُهُ مدينةُ صور ؛ وعلى خُفَّيْهِ ، اللّذين يُوَشِّيهما الذهب ، كانت تلتمع أحجارُ الماس ، ولم يُهْمِلْ مظاهرَ الشَّعْوَذَةِ الأخرى التي من شأنها أن تَبْهَرَ العامّةَ وترفعَهُ في أعينهم ، إلى مرتبة التقديسِ ، بوصفهِ رجلَ دينٍ ذا مكانةٍ رفيعةٍ .

وسارت مَحَفَّتُهُ يُحيطُ بها من جميعِ الجوانبِ عددٌ كبيرٌ من العبيدِ والموالي . وقبلَ أن يغادرَ منزله ، قال لمولاه كالياس :

« لقد تعبْتُ ، يا كالياس ، من مدينة بومبي . لهذا سأغادرُها بعدَ ثلاثةِ أيام .. بَعْدَ غدٍ نبدأ بنقلِ ما أملكُ إلى سفينتي ؛ وستُبحرُ معي إيون ! »

٢٩. رسالة عاجلة

ما إن أفاق سالوست من نومه حتى عادَ يَجثُمُ على قلبه ذلك الحزنُ الذي تولاّه للمصيرِ البئيسِ الذي ينتظرُ صديقَهُ غلوكوس .

وسأل مولاه :

« هل فُتِحَ المدرّج ؟ »

— « منذُ مدّةٍ طويلة .. ولا بدّ أن المصارِعين قد بدأوا

مبارياتهم ! »

— « هل ذَهَبَ أحدٌ من أتباعي ؟ »

— « كلا .. بالطبع .. فأوامرُكَ كانت مشدّدة ! »

— « هذا حسن! ما هذهِ الرسالةُ الموضوعةُ على المنضدة؟»

— « إنّها الرسالة التي حَمَلَها إليكَ أمسِ أحدُ العبيد ، وكنت ... ! »

— « إفتحْها .. لتغيير مَجْرى أفكاري على الأقل .. مسكينٌ يا غلوكوس ! »

وفتح المولى الرسالةَ ، فلم يستطِعْ قراءتَها في بادىء الأمر لاضطرابِ الخطوطِ التي نَقَشَتْها الفتاةُ العمياء . ثم ما لبث أن بدا على وجهه الاهتمامُ والانفعال . قال :

« يا لَلآلهة ! أيَّ ذنبٍ كبيرٍ ارتكبْناه ، أيُّها النبيل سالوست ، بعدمِ قراءة هذهِ الرسالةِ حالَ وُصُولِها ! إسمعْ :

« من نيديا الجارية إلى سالوست ، صديق غلوكوس ..

« أنا سجينةٌ في منزل أرباسيس . أسرِعْ بمقابلة الحاكم ، أطلِقْ سراحي فنستطيع إنقاذ غلوكوس من الأسَد . يوجد داخلَ هذه الجدرانِ سجينٌ آخرَ في إمكانهِ تبرئةُ الأثيني من التهمة الملصَقَةِ به . إصطحِبْ معكَ رجالاً مسلّحين ، وعاملَ أقفال ماهراً وقوياً ؛ لأنّ زنزانةَ السجين صعبةُ الفتح .. أستحلفُكَ بتراب أبيك الا تضيع لحظةً واحدة ! » .

وقفزَ سالوست من سريرِه صائحاً :

– « يا لجوبيتير ! قد يكونُ غلوكوس الآن في مواجهة الموت ! ما العمل ؟ لِأُسْرِعْ إلى الحاكم ! »

– « كلا ! لا يجبُ أن نفعلَ هذا ! إنَّ الحاكمَ ، مثل جمهور المشاهدين ، لا يريد أيَّ تأجيل للاحتفال ! ثم إنَّ أرباسيس سيتخذ إجراءاته ، لأنَّ له مصلحة في هذا ! علينا أن نفعلَ شيئاً آخرَ : لحسن الحظ أن عبيدَكَ كلَّهم هنا .. »

– « فهمتُ قَصْدَكَ ! ليتسلَّحْ جميعُ العبيد ، فَسَنَتَوَجَّهُ كلُّنا إلى منزل أرباسيس لنخلِّص الأسيرَيْن ! هاتِ ثوبي وخُفّي ، وأعطني قِرْطاساً وقلمَ قَصَبٍ .. أريد أن أكتبَ إلى الحاكمِ لكي يؤجِّلَ التنفيذ مُدَّةَ ساعةٍ فقط . »

وبَعْدَ أن خطَّ رسالة قصيرةً ، قال :

« إحمِلْها ، يا « داف » ، إلى الحاكم في المدرَّج بسرعة ! »

٣٠. ثورة الطبيعة

في الحجرةِ التي يُوْضَعُ فيها المجرمونَ ، في العادةِ ، قرب الملعبِ ، وُضِعَ غلوكوس وأولنتوس . كان الاثنان هادئَيْ الأعصاب ، رافعَيِ الجبين ، شأنَ الأبطال العظامِ ، إذْ كان للاثنين معاً ، من الشعور بالبراءة ، ما يقوّي فيهما العزيمةَ

ويَرْفَعُ منهما المعنويات . قال أولنتوس :

« أتسمعُ التصفيقَ والهُتافَ ؟ إنَّهُم يتلذذون برؤية الدَّمِ الانسانيّ ، وهو يُراق ! »

– « أجل ، إنني أسمع وأتألم .. ولكنَّ الآلهةَ ستكونُ إلى جانبي ! »

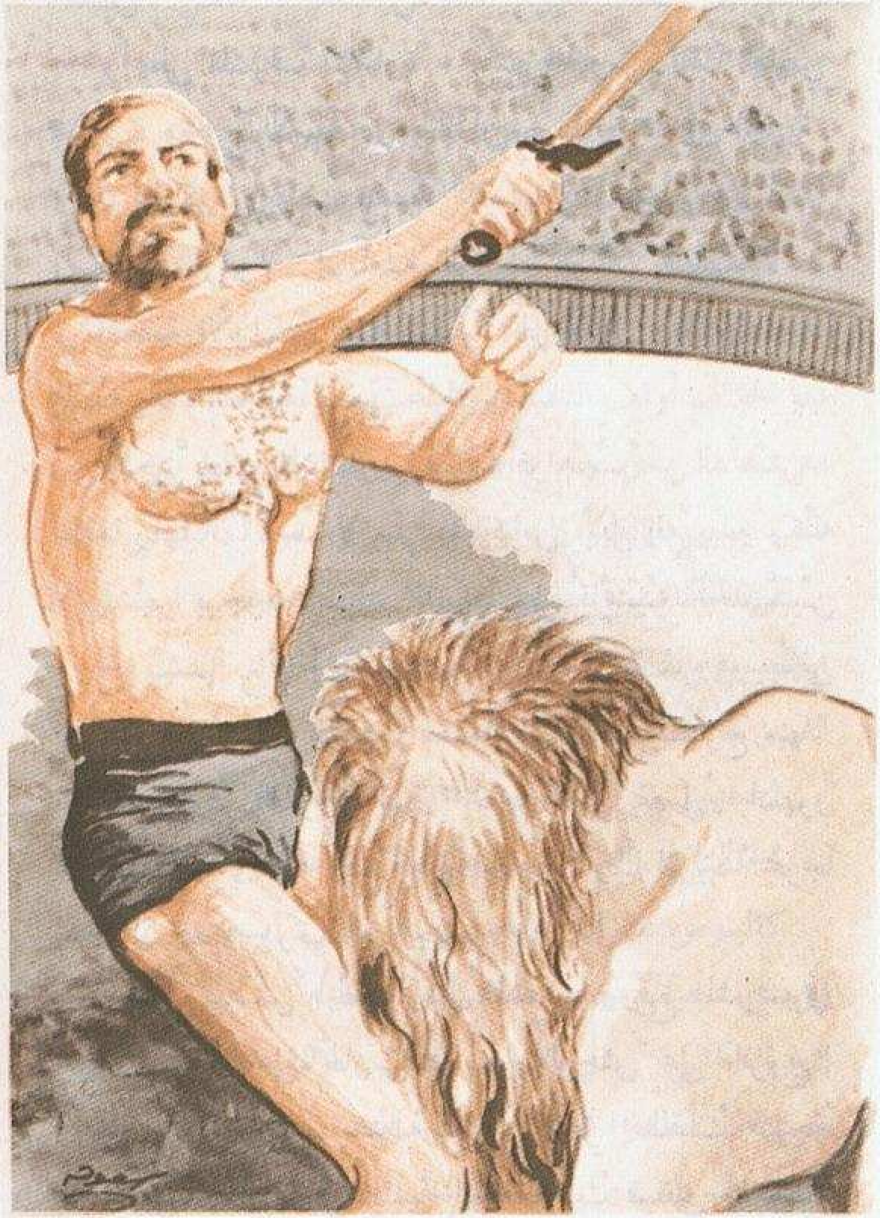
– « الآلهة ، أيها الشاب الأحمق ! لاتتحدَّثْ في هذه الساعة إلا عن إلهٍ واحد ! ألم أعلّمكَ في الزنزانة ؟ ألم أبكِ وأصلِّ مِنْ أجلِكَ ؟ ألم أقضِ طول الوقت في الابتهال من أجل خلاصنا ، نحن الاثنين ؟! »

– « أيها الصديقُ الطيّبُ ، لقد استمعْتُ إليكَ باحترام ، واحترمتُ المبادىء التي تؤمن بها ! ومن يَدْري فلعلّي كنتُ سأعتنقُ دينَكَ لو كُتِبَ لنا الخلاصُ .. ولكنني أرى من الجُبْنِ أن اختارَ في هذه الساعةِ الأخيرةِ ، تحتَ تأثيرِ الخوفِ ما يجبُ اختيارُهُ نتيجةً لتفكيرٍ طويلٍ وتأمُّلٍ عميق ! ليحترِمْ كل منا مبدأ الآخرَ ! »

وفُتِحَ بابُ الزّنزانةِ ، وصاحَ الجنودُ :

« غلوكوس الاثيني .. الدَّوْر دَوْرُكَ .. الأسدُ في انتظارك ! »

– « إنني على استعداد .. تعالَ لاقبِّلَكَ يا أخي .. بارِكْني .. وَداعاً ! »



« وكان غلوكوس يقف وِقفة الاستعداد ... »

وتعانَقَ أولنتوس والوثنيُّ بحبٍّ وحرارة .

ولما أصبح غلوكوس في الهواء الطَّلْق والنور السّاطعِ عاوَدَهُ شيء من أثرِ السُّمِ الذي تجرَّعَهُ ، فدارَ رأسُهُ وترنَّحَ . فَسَنَدَهُ الحرسُ ، وقالَ لهُ أحدُهم :

« تشجَّعْ !.. إنكَ شابٌّ ، حاذقٌ ، متينُ البنيان . وسنعطيكَ سلاحاً .. في استطاعتكَ أن تنتصر .. لا تيأس ! »

فخجل غلوكوس مما أصابه ، وعادَ إلى السيطرة على نفسه . وعندما رأى آلافَ الأعين تتجه إليه ، زايلَهُ كلّ خوف ، واحمرَّتْ وجنتاهُ بعد اصفرار . فشدَّ قامتَهُ ورفعَ رأسَه ومَشَى بعزة وفي عينَيْه وميضٌ يَدُلُّ على البسالةِ والجرأةِ . وفي الحالِ خفَتَ ضجيجُ الحقدِ والاحتقار الذي سادَ الجمهورَ عندما خرجَ من الزّنزانة ؛ وحلَّ محله صمتٌ يَدُلّ على العطف والاحترام . ونقلَ المشاهدونَ أنظارَهُمْ نحو الأسدِ الذي وُضِعَ قَفَصُهُ في وَسَطِ الحلبة .

منذ الصباحِ تولَّت الأسدَ ، الذي حُرِمَ من الطعام طوالَ اثنتَيْن وعشرين ساعةً ، حالةٌ من الضيق والقلق عزاهـا المشرفونَ إلى الجوع . ولكنَّ وجهَهُ كان يعبِّرُ عن الخوف أكثرَ مما يعبر عن الغضب . وكان زئيرُهُ أشبهَ بأصوات شكوى واستغاثة . لقد رَقَدَ في قفصه ، وأخرجَ منخرَيْهِ من بين القضبان ، فكانت أنفاسُهُ تثيرُ الرملَ في جانب

القفص .

وأعطى المشرفُ الإشارةَ ؛ ففتح الحارسُ بابَ القفصِ بحذَرٍ ، وخرجَ الأسد ، وهو يزأر سعيداً بعودته إلى الحرية .

وكان غلوكوس يقِفُ وِقْفَةَ الاستعداد ، منحنياً إلى أمامٍ وسلاحُهُ مرفوع . إن أملَهُ الوحيدَ هو أن يصيبَ الأسدَ في الهجمة الأولى في عينه لتنفذَ الحربةُ إلى دماغه .. وإذا فاتَتْهُ هذه الفرصةُ قُضِيَ عليه نهائياً .

ولكنَّ جميع المشاهدين فغَروا أفواهَهُمْ من الدَّهَش ، عندما رأوا أن الأسدَ لا يهتم بغلوكوس ، بل إنهُ يبدو وكأنه لا يَشْعر بوجوده . وقد انتصبَ على قائمتَيْهِ الخلفيتَّيْن وراح يَشُمّ . ثم أخذ يجري حولَ الساحة ، وهو يُلقي نظراتٍ قلقةً هنا وهنالك ، مفتشاً عن فتحةٍ يَخْرُجُ منها .

بل لقد حاولَ القفزَ من فوق الحاجزِ الذي يفصِلُ الجمهورَ عن الساحة ، ولكنَّه وقعَ لعُلوّ الحاجز . ولمَّا لم يجدْ مخرجاً عادَ إلى قفصه ورَقَدَ من جديد .

وتحوَّل دَهَشُ الجمهورِ إلى نقمةٍ .. ووقعَ المشرف في حَيرة ، وصاحَ على الحارس أن يُجبر الوحشَ على الخروج .

وبينما كان الحارسُ يستعد لتنفيذِ الأمرِ انطلقَتْ صيحةٌ هائلةٌ من أحد مداخلِ المدرَّج ؛ فحدثَتْ فوضى ما لبثَتْ أن هدَأتْ عندما ظهرَ سالوست وراح يشقُّ الجمعَ حتى

وصل إلى مقعدِ الشيوخِ منفوشَ الشعر ، محتقِنَ الوجهِ ، مبهورَ الانفاس . صاح :

« أخرجوا الأثينيَّ من الحلبة .. أسرِعوا ، إنه بريء ! إقبضوا على أرباسيس فهو قاتل أبيسيدس ! »

الحاكم : « أأنت مجنون ، يا سالوست ؟ »

سالوست : « أبعدوا الأثينيَّ ، وإلا فانَّ دَمَهُ في رقابكم .. أيها الحاكم أوقفِ التنفيذَ وإلا فأنتَ مسؤول أمامَ الأمبراطور . معي شاهد رأى مصرع الكاهن .. أفسِحوا الطريق .. يا شعبَ بومبي انظُرْ إلى ارباسيس .. وسِّعوا لكالينوس ! »

وإذا بكالينوس يُحمل على الأكتاف إلى جانب ارباسيس ، ارباسيس بالذات ، وهو شاحب الوجه ، زائغ البصر ، كامدُ العينين كالعُقاب .

الجمهور : « كالينوس الكاهن ! أهذا هو أم شبحه ؟ »

الحاكم : « إنه كالينوس بعينِهِ !.. ماذا تقولُ يا كالينوس؟ »

كالينوس : « إن ارباسيس هو قاتل ابيسيدس ، كاهن إيزيس . بعينَيْ رأسي شاهدْتُهُ يطعَنُهُ .. إنني آتٍ من الزنزانةِ التي رماني فيها ، ولكنَّ الآلهة خلصتني لأفضحَ جريمته .. أبعِدوا الأثينيَّ عن الحَلْبة فهو بريء ! »

وصاح **بانسا** : « إذنْ لهذا السبب لم يقربْهُ الأسد ! إنها معجزة ! »

الجمهور : « معجزة ! معجزة ! أطلِقوا الأثينيَّ ! أرباسيس إلى الأسد ! »

وراحت تتردد أصداءُ الصرخةِ في كل مكان : ارباسيس إلى الأسد .. أرباسيس إلى الأسد !

وعادَ الحاكمُ يقول : « كالينوس، كاهنَ ايزيس، أنت تتهمُ ارباسيس بقتل ابيسيدس ، وقد شهِدْتَ الجريمة .. هذا كافٍ ، والتفاصيل تأتي فيما بعد ... أرباسيس ، سمعتَ التهمةَ الموجهةَ إليكَ فماذا تقول ؟ »

كان ارباسيس قد اضطربَ ، وشحُبَ لونُهُ لدى دخول سالوست وكالينوس . ولكنه ما لبثَ أن استعادَ هدوء أعصابه ونظرَ بكبرياء إلى ألوف الأعين المتجهة إليه . ثم رد بصوت وقورٍ هادىء :

« أيها الحاكم ، هذه تهمةٌ حمقاء! فمن الذي يتّهِمُني ؟. سالوست ، الصديق الحميم لغلوكوس .. وكالينوس ، الذي يُضرَبُ بطمعِهِ المثل ! إن شهادة مثلِ هذينِ الرّجُلينِ يمكن أن تُشتَرى ! إنني بريء ، أيها الحاكم ! »

الحاكم : « أين عثرت على كالينوس ، يا سالوست ؟ »

— « في زنزانة أرباسيس ! »

الحاكم مقطباً : « لقد اجترأت، يا ارباسيس، على سَجن كاهن من كهنة الآلهة .. فما هو السبب ؟ »

أرباسيس : « هذا الرجل هدّدَني بأن يُوجّهَ إليّ التهمةَ إذا لم أعطهِ نِصفَ ثروتي . وقد احتَجزْتُهُ ، لأنني رأيتُ أن شهادةَ كاهنٍ يمكنُ أن تضرَّني ، رغمَ براءتي . وكنتُ أنوي إطلاقَ سَراحِهِ متى انتهى كلُّ شيء .. لقد أخطأتُ ولكن .. لو كنتُ أنا الجاني فلمَ كتَمَ الكاهنُ الشهادةَ ولم يُعْلِنْها أمامَ المحكمة ، وكانَ ذلكَ قَبْلَ أن أسجنَهُ ؟ لمَ لَمْ يُعْلِنْ على رؤوسِ الأشهادِ جريمتي في الوقتِ الذي كنتُ أنا أعلنُ جريمةَ غلوكوس ؟ ليُجِبْ على هذا ! وعلى كل حال أنا تحت تصرف المحكمة ! »

الحاكم : « إنه على حق!.. أيها الحرس أبعِدُوا أرباسيس ، وضعوا كالينوس في مكانٍ أمين ! ولتستمرَّ الألعاب ! »

وصرخ كالينوس، وهو يتوجّهُ إلى الجمهور : « ماذا ! أتُحقَّرَ إيزيس هكذا أمامكم ؟ أيَطلبُ دمُ أبيسيدس الثأرَ دون مجيب ؟ أيُحرَمُ الأسدُ من فريسته ؟ إلى الأسد !.. أرباسيس إلى الأسد ! »

ووَقعَ كالينوس على الأرض وهو يختلج اختلاجاً غريباً وعلى فمهِ الزَّبَدُ . وما إنْ رآه الجمهورُ على هذا الشكلِ حتى هاج ، وراح يردّد نفسَ الهتاف . وهجمت طائفةٌ كبيرة على ارباسيس ، غير عابئةٍ بسلطة القضاة . وحاول **الحرس** عبثاً صدَّ الجمهور الهائج . ونظر أرباسيس فرأى في

السماء ظاهرةٌ عجيبة ، سَرْعان ما استغلها ، إذ وقف منتصباً وأشار بيده إشارة ملكية ، وقال :

« أنظروا كيفَ تحمي الآلهةُ الأبرياء ! »

فنظر الناسُ إلى حيث يشيرُ أرباسيس ، فإذا بهم يَرَوْنَ سحابةً هائلة من الدُّخان ترتفع من قمة الفيزوف ، وإذا بالهَلَع يظهر على كافة الوجوه . كان للسحابةِ شكلُ شجرةِ صنوبرٍ عِمْلاقةٍ ، جِذْعُها بسواد الفحم وفروعها من ألسنة اللهب !

وسادَ صمتٌ رهيبٌ قطعَهُ زئيرُ الأسد الهائج في الملعب ، وزئيرُ النَّمرِ المخيف من وراء المدرَّج . وانطلق صياحُ النساء من المقاعد العليا ، بينما كان الرجالُ ينظرون إلى بعضِهِمْ بصمتٍ من شدَّةِ الرُّعب . وما لبثت الأرضُ أن مادَتْ تحتَ أرجلهم ، وترنحت جدرانُ المدرَّج ، وسقطت سقوفُ المنازلِ مُفرقعةً ؛ في حين بدت السحابة وكأنها سيلٌ جارفٌ ينحدرُ نحوهم ، وراحت تمطرُ الكرومَ والحقولَ والمدينةَ بوابلٍ من الرَّماد والحجارة المحرقة ، يمتدُّ بعيداً فوقَ سطحِ البحر .

وكفَّ الناسُ عن الاهتمام بالعدالة وبأرباسيس ، ليفكرّوا في الهرب والنجاة بأنفسهم . وراحوا يتزاحمونَ ويتدافعونَ ويُطلقون الصياحَ ، والشتائمَ ، والابتهالات .. والويلُ لمن

يقع على الأرض ، فقد كانت الأقدامُ تسحقُهُ دون رحمة أو اكتراث . ولكن .. أين المفرّ ؟ كان البعضُ يتوقعون هزةً أخرى ، فجرَوْا إلى منازلهم ليحملوا ما خَفَّ حملُهُ وغلا ثمنُهُ ويغادروا المدينة ، أما البعضُ الآخر فقد كان هَمُّهُ أن يحتمي من تلك الأمطارِ الجهنمية ، فلجأ إلى المنازلِ والمعابدِ وتحتَ كل سقف . ولكن السُّحُبَ كانت تتلو السُّحُبَ ، وتنتشرُ الظلمةُ لحظةً بعدَ أخرى ، حتى غرقتِ المدينةُ برُمَّتها في ليلٍ دامسٍ خنَقَ الشمسَ في رائعةِ النهار .

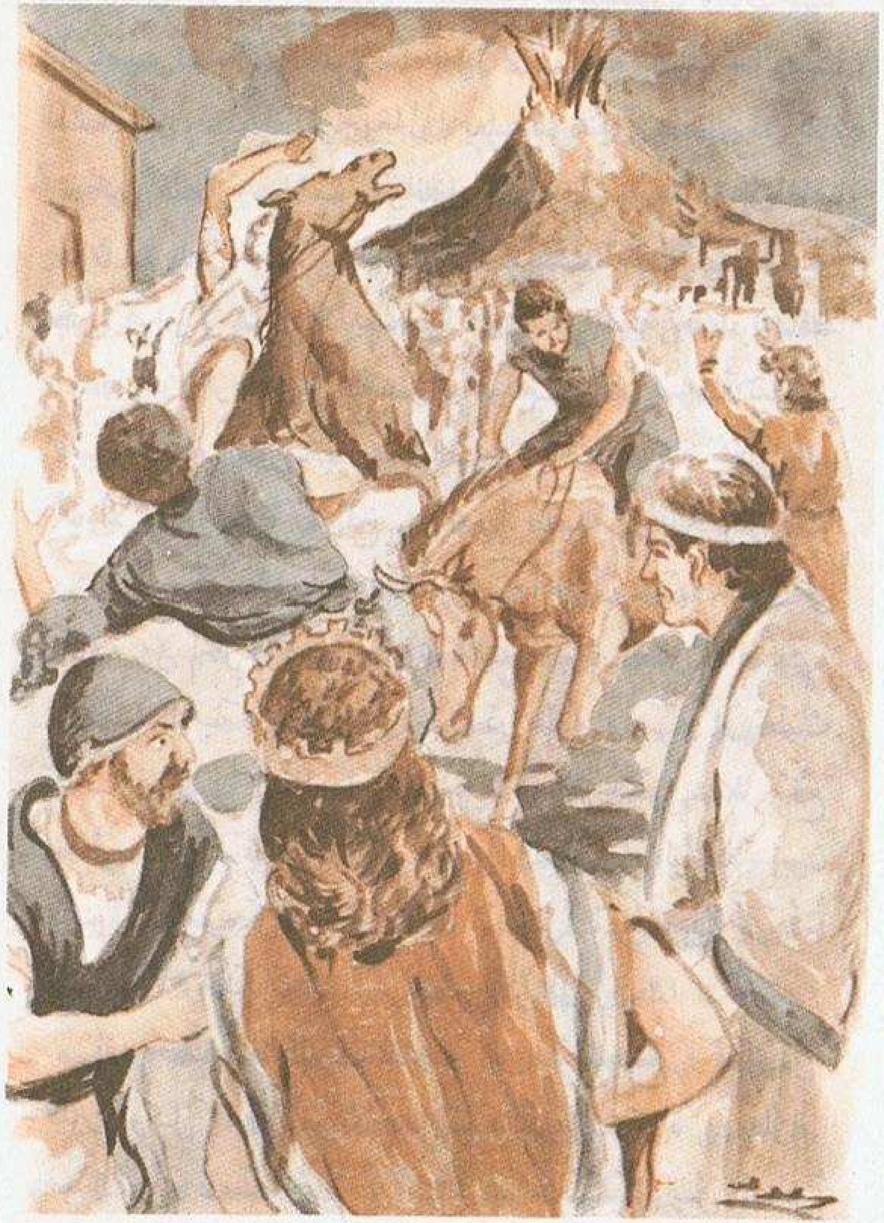
٣١. نجاة غلوكوس...

أخذ الحراسُ غلوكوس ، الذي تولاّه الدَّهَشُ ، من الملعب ووضَعُوه في حجرة من حُجَر المسرح . وسمع الناسُ ، المتجمعون على باب الحجرة ، صرخةَ فتاة تشُقُّ صفوفَهُم وتتجه إلى الحجرة . وما إن دخلتْ حتى ارتمت على قدمي غلوكوس ، وهي تقول :

« لقد أنقذْتُهُ .. أنا التي انقذْتُهُ .. الآن أستطيع أن أموتَ هادئةً ! »

وصاح غلوكوس :

« نيديا ! صغيرتي ! حاميتي ! »



« النار ستدمّر العالم ... لقد جاءت الساعة ! .. »

– « دعْني ألمسُ يدك ! أنتَ حيّ !.. لقد أنقذْتُك ! »

هذا المشهد المؤثر قطعَتْهُ الهزةُ الأرضية . وما إن انطلقت هذه الصيحات : « الجبل .. الهزة الأرضية » ، حتى هرب الحراس تاركين غلوكوس ونيديا يتدبّران أمرَهما . وتذكّر غلوكوس رفيقَهُ أولنتوس فأخذ نيديا بيدها وتوجّه إلى السجن ، حيثُ وجدا السجينَ يصلّي . فقال له :

« إنهض ، يا صديقي ، واهرب فقد حرَّرَتْكَ الطبيعة ! »

وخرج أولنتوس ، فرأى الهرجَ والمرجَ ، ورأى جُثَثَ القتلى منتشرةً هنا وهنالك . وسمعَ صوتاً يهتف باسم الربّ . فالتفتَ فإذا به يرى شيخاً أبيضَ الشعرِ مجعّد الجبهةِ في عينيهِ الضعيفتين تتحير المأساةُ والدموع . كانَ يتربّعُ على الأرضِ بين الدّماءِ وقد وَضعَ على حضنِهِ رأسَ أحد المصارعين القتلى . قال أولنتوس بشفقة :

« ميدون ، قُمْ واهرُبْ قبل أن تأكُلَكَ النار ! »

– « منذا الذي يريدُ أن يفصِلَ بين الأبِ وابنه !.. »

وراح ميدون يُقَبّل رأسَ وحيدِهِ ويُرْسِلُ الدموع . وما لبث أن تراخى ، وسَقَطَ ، فوقَ جثّةِ ابنِهِ ، جسداً بلا روح .

في هذا الوقت كان غلوكوس ونيديا يجتازانِ الشوارعَ الخطرة بسرعة . وقد عرَفَ الأثنيُّ من رفيقتهِ أن إيون لا

تزالُ في منزلِ ارباسيس ، فجرى لتخليصها . وكان عبيدُ أرباسيس ، الذين لم يستطيعوا مقــاومة عبيد سالوست المسلّحين ، قد تفرقوا ولجأوا بعد الهزة إلى مختلِفِ الأنحاء تاركينَ قَصْرَ مولاهم . وانتقل غلوكوس من قاعة إلى قاعة دون أن يلتقي أحداً . وكانت الظلمةُ تشتدّ لحظةً بعد أخرى حتى صار لا يَرى إلا بصعوبة . وفي كل لحظة كانت تتساقط الحجارةُ والرمادُ على القصر وحولَهُ محدثةً صوتَ تقصُّفٍ تضطرب له القلوب ، وبينَ الفيْنةِ والفيْنةِ كان يخيَّل إليه أن الأعمدةَ القويةَ ترنح . وأخيراً صَعَدَ إلى الحُجَرِ العليا وهو ما يزالُ يناديها بأعلى صوته . وأخيراً سمعَها تجيبُ على ندائهِ من آخرِ الرّدهة . وفي لحظاتٍ قصيرةٍ انطلق كالسّهم ، وحطّمَ البابَ ، وتلقّى إيون بين ذراعيْهِ وجرَى إلى حيْث كانت نيديا في انتظارِهِ . وبينما كانا خارجيْن سمعا وَقْعَ خُطىً ، وعرَفا صَوْتَ أرباسيس الذي جاء ليأخذَ إيون وكنوزَهُ ويرْحَل . كان الظلامُ منتشِراً ، لهذا لم يرَهُما المنجّم ، وحثّا الخطى ليهربا ؛ ولكن إلى أين ؟

لقد حطّمتِ الكارثةُ المفاجئةُ روابطَ المجتمع . فالحرسُ الذين أوكِلَ إليهم أمرُ الاحتفاظ بكالينوس تركوهُ ورحلوا . فما إن رأى نفسَهُ حراً حتى أسرعَ نحوَ مَعْبَدَ إيزيس ليحملَ ما يستطيعُ حملَهُ من الأشياء الثمينة ويهرب . ولقي في الطريق

بوربو ، فاتفقا على أن يقتسما الأسلابَ ويركبا البحرَ معاً ، لأنّ أحداً لن يحاسِبَهما . ولما دخلا المعبدَ وجدا عدداً من الكهنة ساجدينَ عند المذبح . وفي حُجرةٍ مفتوحةٍ على الساحة الخارجية أشعَلَ كالينوس مصباحاً ، فوجد طعاماً وخمراً مُعَدّيْنِ لاحتفالٍ ديني ؛ فأقبلَ يلتهمُ الطعام ، رغم الدمار الذي يتلاحق في كل مكان ، لأنه لم يأكلْ منذ يومين . وبينما هما كذلك سمعا صُراخاً وأصواتَ توجّعٍ تلاها صمتٌ مُطبِقٌ . ذلك أن البركان كان قد قذف على المدينة سيولاً من المياه الحارّة والرماد جرت على الأرض متحوّلةً إلى وُحول ملتهبةٍ دفعت معَها الحجارةَ التي تشبه الجَمْر ، واندفعت إلى داخل المعبد فسلقتِ الكهنةَ الساجدين ، فلم يجدْ هؤلاء أمامَهُمْ سوى لحظةٍ يَطْلُبونَ فيها الرحمةَ من الآلهة ، ثم .. لا شيء !.. لقد ماتوا جميعاً ! وحمل كالينوس ذَهَبَهُ وراحَ يخطو فوق جُثَثِ إخوانه . ولحقه بوربو ، ولكنّ كميةً كبيرةً من الموادّ البُرْكانيّةِ سقطتْ أمامَهُ وسدّتْ طريقه ، وسدّتِ المنفذَ نهائياً ؛ فعادَ إلى الداخلِ يحاولُ أن يفتحَ منفَذاً في أحدِ الجدران . أما كالينوس فقد قال في نفسه : « أحسَن !.. صارَتْ حِصّتي مُضاعَفةً ! » .

في ذلك الوقتِ كانتِ الشوارعُ قدْ خلَتْ من الناسِ ، إلاّ قليلاً . وكان كلوديوس يَسيرُ فسمعَ استغاثةً :

« أنجدوني .. لقد وَقعْتُ .. مِشْعلي انطفأ .. عبيدي تركوني .. أنا ديوميد ، التاجرُ الغني .. ألفُ سسترس لمن ينقذني ! »

فمدَّ له يده ؛ قال ديوميد :

« كلوديوس ؟ إلى أين ؟ »

– « إلى هركولانوم ! »

– « لماذا لا تلجأ إلى داري في الضاحية .. أنت تعرفُ أن لديَّ مخازنَ تحتَ الأرضِ يمكن أن تكونَ أصلح ملجأ يحمي من هذهِ الأمطارِ الفتّاكة ! »

– « فكرة ! على شرطِ أن يكونَ فيها ما يكفي من المُؤَنِ لقضاء عدّةِ أيامٍ . ريثما تتوقّفُ هذه الكوارث . »

ومرّت فترةُ هدوءٍ . فأسرعَ الهاربانِ يغادران المدينة . وكان القنديلُ على بابها يُضيء ، والحارسُ في نُقْطتهِ لم يتحرّك . حتى في تلكَ الساعةِ الرهيبةِ لم يغادرْ هذا المسكينُ مكانَهُ . لأنَّ الأوامرَ لم تَصْدُرْ إليه بتركه[1] .

٣٢. لحظات رهيبة...

كانت السحابةُ فوقَ الفيزوفِ تزدادُ كثافةً ساعةً بعدَ

(١) عثر على هياكل كثير من الحراس في نقط الحراسة .

ساعة . وكلّما اشتدّتِ الظُّلماتُ ازدادَ التماعُ الحِمَمِ التي يَقْذفُها البُرْكانُ في ثَوْراتهِ تلكَ المُدمِّرة . وكان لَوْنُ تلك الأضواء مختلفاً كلَّ الاختلافِ عن لَوْنِ النيرانِ ، لقد كان في تنوُّع قَوْس قُزَح ، وكانت تلك الأضواءُ تتّخذُ أحياناً شكلَ أفعى أسطورية ، وأحياناً أخرى تكونُ كتلةً حمراء لاهبةً باهرةً تضيء المدينةَ برُمّتِها ، ثم لا تَلْبَثُ أن تنطفيءَ وتخلّفَ وراءها السوادَ الشاملَ . وبين الزّخّةِ والزّخّةِ من أمطارِ الحِمَمِ كان يُسْمَعُ هديرٌ رهيبٌ من باطنِ الأرض ، وزمجرةٌ هائلةٌ من البحر الهائج ، وصَفيرٌ مثلُ صفيرِ العاصفةِ ، ينبعِثُ منَ الغازاتِ المنطلقةِ من شُقوق الصخور .

في بعضِ الأماكنِ كانتْ طبقاتُ الرمادِ ترتفعُ حتى الرُّكَب ؛ وكانَتْ سيولُ الحِمَمِ تَدْخلُ المنازلَ حاملةً معَها الأبخرةَ الخانقةَ . وكانت كتلٌ كبيرةٌ من الصخورِ تَسْقُطُ أحياناً على سُطوح المنازل ، وفي الشوارعِ فتسدُّها . ومعَ تقدُّمِ النهار يزدادُ اضطرابُ الأرضِ ، فلا تستقرُّ عَرَبةٌ أو محفّةٌ ، ولا يستقيمُ سَيْرٌ لسائر .

وكانت الحجارةُ المتساقطةُ تصطدمُ ببعضها وتتطاير شظاياها ملتمعةً وسطَ الظلام ، وتشعل شراراتُها العجيبةُ ما تصادِفُهُ في طريقها من موادَّ قابلةٍ للاشتعال . فكانت

الحرائق تندلعُ في المنازلِ والكرومِ وتبدِّدُ الظلامَ مـن حولها . ومع ذلك فقد كان الناسُ يضيئـون المصابيحَ في الساحاتِ العامة وعلى مداخل المعابد وفي الساحة الكبرى ، فلا تلبثُ أن تطفئَها تلك الأمطار .

وعلى هذه الأضواءِ غيرِ المستقرَّةِ كانَتْ تُرَى جماعاتُ السكّان جادّةً في الهرَب إلى الأقاليم ، أو ساعيةً إلى البحر ، الذي انسحبَ كثيراً عن الشاطىء . على أنَّ البحرَ كانَ أخطرَ من البر ، إذ لم يكُنْ من الممكنِ أن يُحتَمَى على سَطْحِهِ من الرَّمادِ والحجارةِ المتساقطة . وكانَ الناسُ لا يستطيعونَ أن يتجمعوا للتداولِ فيما بينهم من أجلِ تخطيطِ الحماية ؛ ذلكَ أنَّ الأمطارَ الجهنّميةَ كانَتْ سُرْعانَ ما تفرِّقُهُمْ . لقدِ اختلَطَ الحابلُ بالنابلِ واختفَى النظامُ الاجتماعي ؛ فكان الذي يسطو على المنازل يمرُّ بجانب القاضي وهو يحملُ الأسلابَ ، ليذهَبَ بها بعيداً عن المدينة . وإذا ابتعدَت امرأةٌ عن زوجها ، أو ولدٌ عن أبيه فلا أمَلَ في لقائهم مرةً أخـرى .

وكان الأثينيُّ يسير وفي صحبته إيون ونيديا . وفيما هم كذلك، أقبل مئاتٌ من الناس ، في سيلٍ جارف ، متّجهينَ نحوَ البحر . فانفصلت نيديا عن رفيقَيْها . وبعد أن مَـرَّ العابرونَ لم يجد غلوكوس لها أثراً ؛ فقد كان هذا السيلُ

الانسانيُّ قد جرَفَها في طريقِهِ . كانَتْ هذه العمياءُ هـي دليلَهما لأنها كانت تعرفُ كافّةَ الطرُق ، التي سبق لها أن سلكَتْها ألوفَ المرات . ومع ذلكَ ظلَّ الاثنانِ سائرَيْنِ رَغْمَ تساقُطِ الرَّمادِ والامطار . وقالت إيون وقد خارَتْ قُواها :

« لم أعُدْ أستطيعُ السَّيْرَ فوقَ الرَّمادِ المحرِق .. دَعْني يا حبيبي ، لمصيري وانجُ بنفسك ! »

— « اسكتي ، يا زوجتي الحمقاء، إنَّ الموتَ إلى قُربك أشهى في نظري من الحياة بعيداً عنك ! ولكنْ كيف نوجِّهُ خُطانا في هذه الظلمة .. يبدو لي أننا عُدْنا إلى نفسِ المكانِ الذي تركْناهُ منذُ ساعة ! »

وفي تلك اللحظة سقطت صخرةٌ على أحد السطوح فأحدثت لمعاناً رأى غلوكوس على وميضِهِ أنّهما قريبان من معبـد « فرتونا » . فدخلا ليَحْتَميا فيه . وعلى ضوء لمعانٍ آخر رأى غلوكوس الأسدَ الذي كان مُعَدّاً لافتراسه . وكانَ في جانبِ الأسد المصارعُ « نيجر » ، الذي أصيب بجرح . لقد زحف الأسدُ إلى جانب المصارعِ وجَثَمَ بالقرب منه ، كأنه يفتّشُ عن صديق . وهكذا قرَّبَتْ ثورةُ الطبيعةِ حتّى بين الوحشِ والانسان .

لم يكن في وُسْعِ الهاربَيْنِ أن يتقدّما في فتَرات الهُدنة

والهدوء بسببِ الظلام . ولا يكشفُ الظلمةَ سوى سيول الحِمَمِ عندما تهطُلُ أمطارٌ جديدة ، وفي أثناءِ ذلكَ لا يستطيعان بالطبع أن يتحرَّكا ، وكانَتْ أصواتُ الاستغاثةِ تتصاعَدُ من كلِّ ناحية ، سواء من النساء المروَّعات أو من الضحايا الغارقين في الأوحالِ اللاهبة .. لا أحدَ يستطيعُ أن يُغيْثَ أحداً !

وأقبلَتْ مجموعةٌ من الناسِ تحمِلُ مِشْعَلاً ، في فترةِ هدنة . إذن فالفرصةُ سانحةٌ للسَّيرِ على ضوءِ المِشْعل . ولكنْ .. من هذا ؟ إنّهُ أرباسيس ! نَعَمْ أرباسيس المنجِّمُ المصري ومجموعةٌ من عبيدِهِ تحملُ السِّلالَ التي ملأها بالذَّهبِ والجواهر . وكانَ يَرْفَعُ بيده سَيْفاً يقودُ به العبيدَ بالقوة . ولما رآهُما أرباسيس صاح :

« وحقِّ آبائي إنَّ الحظَّ ليَبْتَسِمُ لي وسطَ هذه البلايا . تَنَحَّ ، أيها الإغريقيّ ، فأنا أريدُ ربيبتي إيون ! »

غلوكوس : « تقدم ، ايها السفاح الخائن ! حاول أن تلمسَها لترى ما يَحِلُّ بك ! »

كان أرباسيس يقف قريباً من عَمودٍ ضخمٍ يرتفعُ فوقَهُ تمثالٌ من البرونز للامبراطور « اوغست » . وفي تلك اللحظة اهتزّتِ الأرضُ وقذَفَ البركانُ الحِمَمَ ، والتمعَتِ السماء . واتصلَ اللَّمْعُ بتمثال البرونز فبدا وكأنه أتونٌ

مشتعل ، ثم هوى بفرقعةٍ رهيبة . ومرت لحظاتٌ استعادَ فيها غلوكوس وإيون أنفاسَهما وأخذا يجريانِ في الشارع الذي ما زال مضيئاً . ولكنَّ السوادَ عاد يلفُّ الأجواء . ونظر غلوكوس دون شعورٍ إلى الجبل ، فرأى إحدى قِمَّتَيْهِ تنفجرُ وتتهاوى بفرقعة لا يمكنُ وَصْفُها في أيِّ لغةٍ من لغات البشر . وراحَتِ القمة المتفجِّرةُ تتقلَّبُ على المنحدَرِ كِسَفاً من النيران الوهاجة . وفي نفسِ الوقت انطلقت كتلةٌ هائلةٌ من الدخان ما لبثت أن انتشرتْ فوق البر والبحر . وتتالت الفرْقعات ، واحدةً إثرَ واحدة .. وهطلت أمطارُ الرَّماد والحجارة المحرقة لتضيف ويلاتٍ جديدة، وتنشرَ اليأسَ والدمار . وامتدتِ الظلمةُ مرةً أخرى وجرتِ السيول المحرقة فوقَ غلوكوس تحت عَقْدٍ ضاماً إليه إيون ، واستسلم الاثنان للأقدارِ في انتظار الموت .

٣٣. النهايـة ...

في هذا الوقت كانت نيديا لا تزالُ تفتِّش عنهما . لقد عادَتْ أكثر من مرةٍ إلى المكان الذي أضاعَتْهما فيه ، ولكنْ دُوْنَ جَدْوى . وكانت تسألُ المارة عن غلوكوس ، فيصدّونها بتبرّم ، لأنَّ كلَّ واحد مشغولٌ بنفسه . وأخيراً

خطر لها أن تذهبَ إلى الشاطىء لأنهما كانا يريدانِ النجـاةَ عن طريق البحر . وبخفَّةٍ عجيبةٍ تمكّنَتْ هذه العمياءُ من الوصولِ إلى البحر وهي تَقْرَعُ الطريق بعصاها .

ومن عجيبِ الصُّدَفِ أنَّ السُّيولَ الحارقةَ لم تَمَسَّها كأنَّ القَدَرَ نَفْسَه كان يحميها . وكانتِ الحجارةُ المشتعلةُ تتساقطُ وراءَها وأمامَها وعن جانبَيْها مُبْتَعِدَةً عن هَيْكلِها الهزيل . فاذا ما تساقطَ شيءٌ من الرمادِ عليها بادرت إلى نَفضِه . واستأنفت سَيْرَها بشجاعةٍ لا تَعْرِفُ الخَوَر .

وكانَ الناسُ يَزْحَمُونها في الطريقِ ، وهُمْ ماضُونَ في عَجَلَةٍ من أمرِهم . وجَرَفَتْها آخرَ الأمر مجموعةٌ تحملُ مِشْعَلاً ، فسقَطَتْ على الأرضِ . وصاحَ صوتٌ مـن المجموعة :

« ماذا ؟ إنها العمياءُ الشجاعةُ .. وحقِّ باخوس لن أتركَها تموت هكذا ! إنهضي أيتها التَّاليّة .. هل أنتِ سليمة ؟ حسناً ؟ تعاليْ معنا إلى الشاطىء ! »

نيديا : « سالوست ؟ حمداً للآلهة ! ألم ترَ غلوكوس ؟ »

— « كلا ، لم أرَه .. لا بُدَّ أنَّهُ أصبحَ خارجَ المدينةِ .. فالآلهة التي انقذَتْهُ من الأسد ، لا بد أن تنقذَهُ من البركان » !

ولم يستمع إلى توسلاتها لكي يفتِّشا عن غلوكوس ، بل جرَّها معه نَحْوَ البحر . وفيما كان وجماعتهُ يدخلون الطريقَ

الضيِّقةَ المؤدِّيةَ إلى البحر ، كان ألوفٌ من الناسِ عائدينَ من هناك ، لأنهم رأَوْا اليابسة أسلَمَ لهم . وهكذا أوقفَ الفريقانِ ، كل منهما الآخرَ . قال شيخ ذو لحية طويلة :

« النار ستدمِّر العالم .. لقد جاءَتِ الساعة ! »

وأجابه صوتٌ رنان لا اضطرابَ فيه :

« أجل ، جاءتِ الساعة ! »

كان هذا هو أولنتوس ، الذي كان يقفُ في جماعةٍ من مريديه ويَعِظُ الناس . وبينما كان يتحدَّثُ انطلقَ البَرْقُ الذي قضى على أرباسيس ؛ فدبَّ الذعرُ في الناسِ ، ولكنَّ اولنتوس استطاعَ أن يهدّىء من رَوْعِهِمْ ، داعياً إياهم إلى تسليم أمرِهم لله ، لأن الساعةَ أتت ، ولا مَرَدَّ لها .

وكانَ بَيْنَ الواقفين « سوزي » عبدُ ارباسيس . فسألَتْهُ إن كانَ رأى غلوكوس ؛ فأخبرَها بأنَّهُ رآهُ على وَشْكِ الموت تحتَ قَنطَرةِ الساحةِ الكبرى . فما كانَ منهـا إلا أن انسحبَتْ دونَ إخبارِ سالوست وعادَتْ إلى المدينة . وفي المكان الذي عيَّنه لها « سوزي » راحت تنادي غلوكوس . فردَّ عليها صوتٌ ضعيف : لقد كان هُوَ غلوكوس .

وتحامل الشابان على نفسهما وسارا مع العمياء الخبيرة ، التي حَرَصَتْ على أن تأخذَهما من طريقٍ أخرى غيرِ التي سدَّها الناس . ووصلوا أخيراً إلى البحر . وكانَتْ هنـاك

مجموعةٌ جريئةٌ من السكان الذين آلَوْا على أنفسهم أن يَرْكبوا البحر بأيِّ ثمن ، بَدَلَ أن يظلُّوا وسطَ الجحيم .

وفي القاربِ الذي ركبوهُ ما لبثَتْ إيون أن أغفَتْ على صدر غلوكوس ، لطُوْلِ ما تحمَّلَتْ من التّعب ؛ في حين رقدَتْ نيديا عند قدميْه . وكانت تسقُطُ على القارب وحولَهُ أمطارُ الرَّماد ، التي كانت تَضْعُفُ كلَّما ابتعَدَ القاربُ عن مسرَحِ الكارثة .

• • •

وطلع عليهمُ الفجرُ آخرَ الأمر . كانتِ السماءُ صافيةً ، والبحرُ ترتعشُ صَفْحَتُهُ الزرقاءُ تَحْتَ لمساتِ الأنسام .. الهدوء شاملٌ ، وعندَ الأُفُقِ الشرقيّ تتورّدُ وَجْنةُ السماء ، إيذاناً بقرْب ظهورِ الشمس . وفي الأبعاد كانت ترتسمُ الكتلةُ السوداء التي تصطبغُ حواشيها بحُمرةٍ تختفي تدريجياً .. إنها بقايا النيرانِ التي ما زالتْ تضطرِبُ في باطنِ الجبل المُهيْمنِ على « الحقول المحروقة » . هذا الشاطىء الصامتُ الحزينُ كانَ بالأمس عامراً بمدينتَيْنِ تنطِقان بالفنّ ، بالذوق ، بالجمال .. كل شيء قد اختفى . وحلَّ الخرابُ والوحشةُ مكانَ الأعمدةِ والتماثيلِ وأقواسِ النصر .

كانت بعضُ القوارب الأخرى تتهادَى كذلك على صَفْحة المياه . هؤلاء كُتِبَتْ لهمُ النجاةُ .. ولكنْ كم من الأصدقاء

والأحباب غُيِّبوا تحت الرَّماد والانقاض !

وقبل أن يستفيقَ أحد ، نهضَتْ نيديا واقتربَتْ من غلوكوس فقبَّلَتْ جبينَهُ ، ووَجْهَهُ .. وبحثَتْ عن يدِهِ فوجدَتْها مُمْسِكةً بيد إيون ، قالت :

« لِتباركْكما الآلهة ، ولتملأْ حياتَكما بالسعادة .. ولتَذْكُرْكَ أيها الأثينيّ ، بنيديا .. لم تعُدْ نيديا ذاتَ فائدة لك .. إنها تخشى أن تحملَها الغَيْرَةُ على عمل تَنْدَمُ عليه ، بعد أن أنقذَتْكَ مرَّتَيْن من الموت ! »

بعد ذلك تسلَّلَتْ إلى طَرَفٍ خالٍ من أطرافِ القارب ؛ وبهدوء تامٍّ انحنَتْ فوقَ اللُّجَّةِ وغاصت فيها .

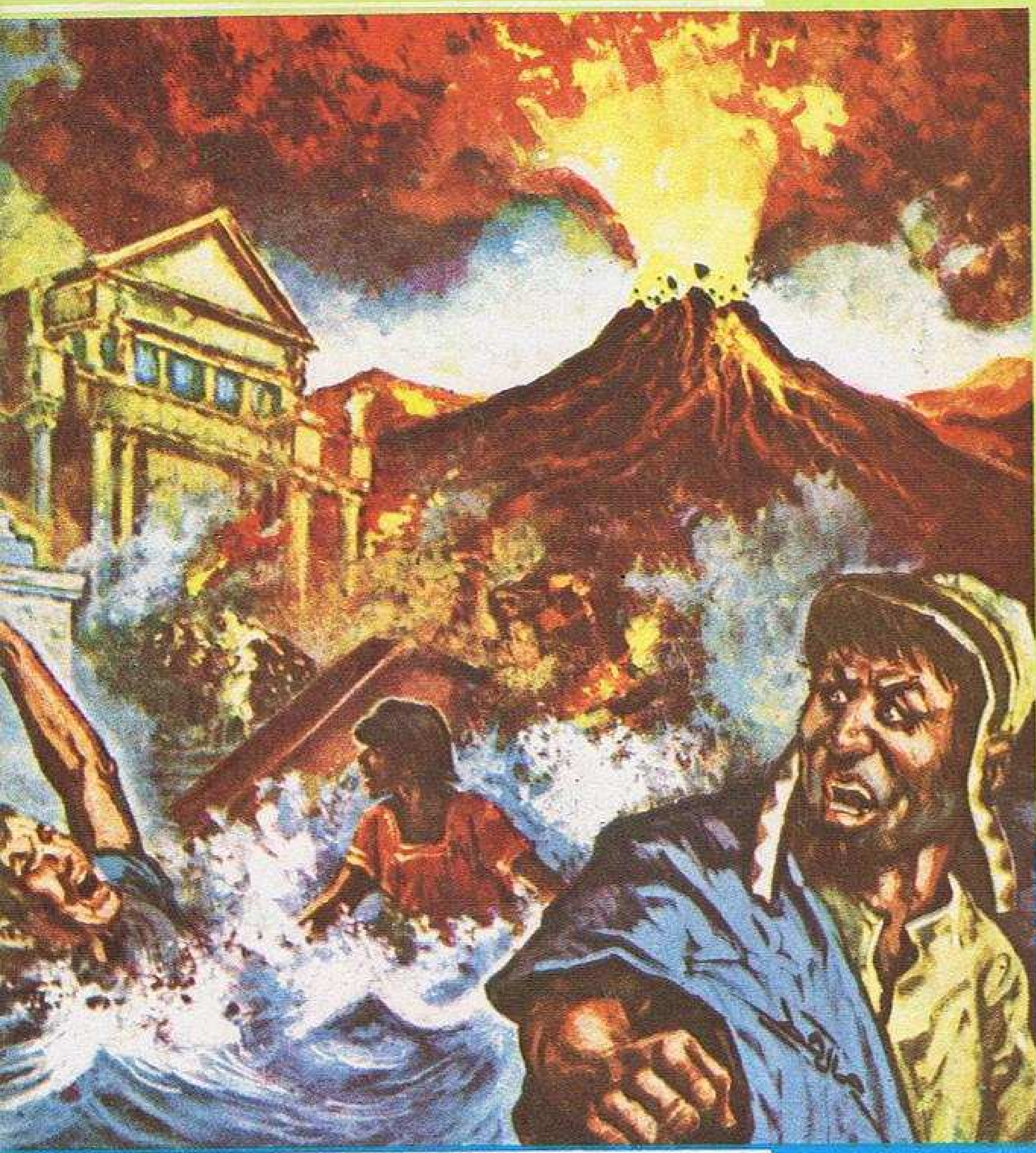
وعندَما أفاقَ غلوكوس وإيون فتّشا في كل زاويةٍ عن نيديا ، الحارسةِ والمنقذة ، فلم يَعْثُرا لها على أثر . ونسيا فرحةَ الخلاص ليبكيا رفيقَتَهما العمياءَ البطلةَ التي جمعَتْهما ثم فضّلت أن تختفي إلى الأبد .

انتهى

الفهرس

آخر أيام بومبي

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات



دار العلم للملايين
بيروت